سامي الجندي

صديقي الياس

صَديقي اليَاسِن

دار النهار للنشر
بيروت ١٩٦٩

سامي الجندي

صديقي الياس

دار النهار للنشر ش م ل
بيروت لبنان

الاهداء

دمشق ، يا نبع حناني ، يا شقراء بين المدن ، يا عوسجة ياسمين اقدم لاحزانك هذه الجثة المخنوقة .

- ١ -

لا يعلم متى ولد . لا يدرك من صور طفولته غير ذكريات قليلة غامضة : قضبان حديدية غليظة يقف أمامها أحياناً شرطي أشهب الشارب يفتله ويناوله قطعة سكر ثم ينظر إلى أمه لامع العين شبقها، ثم يصيح وقد وضع يديه على نطاقة : سكوت ! ... يكفي ! ... لا ضوء هذه الليلة .

كان الشرطي يتصنع الغضب إذا انقطع التيار الكهربائي عن السجينات. يعلم أن سبب تعطّله حيلة منهن كي يفتح الباب ويدخل عامل الكهرباء الوسيم الذي سجن بتهمة تهريب مخدرات ، فيقترب منه الخاطئات يتمسّحن به ، يداعبنه بشغف مكبوت اللهفة .

ما كان الشرطي يدع « سليماً » يدخل وحده ، بل يرافقه زاعماً أنها الأوامر وفي دخيلة نفسه غيرة منه شرسة. فقد كان يخشى أن تميل له سلمى ، أم صديقي الياس .

كان الصغير يقبع في حضن امه في زاوية المهجع ينظر إلى يدي العامل كيف تتلاعب بالشرطان ويستمع إلى شتائم السجينات ودعاباتهن الداعرة وينتظر نهاية العمل. فقد اعتاد في كل مناسبة من مثل هذه أن يناوله الشرطي حبة سكر ويربّت على خده حين تزغرد السجينات وينطلقن بصيحة عالية وضجيج فرحاً بالنور .

يذكر جيداً « السطل » القذر الذي كان يجرّه وراء امه إذا بدأت بمسح الأرض . كانت الوحيدة التي لا يزورها أحد ولا يرسل لها احد غذاء او هدية فأخذت تقوم بخدمة السجينات ،

تطبخ لهنّ إن شئن ، تنظف المهجع كل يوم مرتين . كان لهو الصغير ولعبه مساعدة امه ، يتبعها بالسطل ويركض إذا رمت سجينة بذرة أو قشراً فيحملها ويرميها في إناء الأقذار .

يذكر أيضاً يوم عيد أخرجت له فيه امه من صرة — يظن انها جاءت بها يوم دخلت السجن — ثوباً جميلا قد يكون غالي الثمن وقد يدل على انه كان من عائلة ميسورة . يذكر انه وقف وراء القضبان ونظر إلى ساحة السجن الخالية وان الشرطي نفسه جاء في حلّة جديدة ففتح جميع الأبواب وخرج السجناء للتنفس . وقف طويلا يتطلع اليهم وكان بعض منهم ينظر اليه نظرات لم يفهم مغزاها آنئذ . فتح له الشرطي الباب وجرّه من يده فدخل أحد سجناء المنفردات إلى منفردته وأخرج كيساً فيه حلوى ثم تحلق الباقون حوله يداعبونه . يذكر جيداً أن عجوزاً منهم بكى وعاد سريعاً إلى سريره فاستلقى عليه ووضع يده على عينيه .

يذكر اكثر من كل ذلك ان حارسة السجينات « ام عدنان » كانت تبتعد بأمه عن الاخريات فتحدثها همساً وان امه كانت ترفع رأسها علامة الرفض .

ذات ليلة كان يغطّ في نومه فاستيقظ على ام عدنان تشد بأمه من فراشها . وان ينس لا ينسَ الكلمة التي فاهت بها : « تحقيق » ! وقبع الطفل في الفراش يبكي منتظراً إياب امه فقالت له إحدى السجينات : « نم يا صبيّ وإلا ضربتك ! » فخفض صوته وظلت دموعه تسحّ .

وأخيراً عادت امه وفي وجهها كدمات وسقطت على الفراش تبكي هي الاخرى مبحوحة الصوت تهذي . نظرت اليه وكأنها تجهله . يذكر جيداً انها أشارت اليه وصرخت : « إبن من هذا الصبي ؟ »

استيقظت السجينات وأخذن يهدئنها وهي تنتفض . قالت : « اعتدى عليّ المحافظ . أنا الأخرى زانية ! »

هدأت بعد لأي وأخذت تداعب ابنها وتقبله فرقد ، فنام من في المهجع.ثم استيقظ بعد قليل على عويل خارج من أعماق القبور أو ذاهب إلى اعماق القبور . كان اللهب في الزاوية أحمر ضارباً للسواد ، داكناً ، موتور الشعلة . فعمدت السجينات اليه كي يطفئنه ، لكن سلمى كانت من عالم آخر والصبي لا يفهم شيئاً .

يذكر جيداً آخر ما قالته : « ليهنأ المحافظ ! » ثم انطفأ اللهب .

أخذت جورجيت الطفل إلى حضنها وقالت له : « منذ الآن انت ابني ... » لم يفهم كيف يمكن ان تكون له ام اخرى .

تبدل جو السجينات فما عاد صاخباً كما كان ، لأن بائساً حقيقياً ولد بؤسه آنئذ . وافتقد عامل الكهرباء انقطاع التيار . امّا الشرطي فقد انطفأت غيرته .

ـ ٢

خرجت جورجيت بعد شهور ثلاثة من السجن تجر الياس من يده وهو يتلفت إلى الوراء يومىء بيده لسجناء المنفردات وقد وقفوا وراء قضبانهم يشيرون اليه مودعين. وقبل ان يتجاوز الساحة استوقفه احدهم قائلا : خذ يا صغيري هدية السجن !

وناوله محفظة خرز فيها مائتا ليرة .

كانت جورجيت مثله بلا مأوى فلا هي تريد العودة إلى البيت السري الذي قبض عليها فيه بجرم الدعارة بعد ان اصبحت اماً ولا اهل لها تلجأ اليهم. اما زوجها فلن يقبل توبتها، وما كانت تجيز لنفسها ان تصرف دراهم الصبي .

عندما وصلت إلى باب السجن وجدت بانتظارها « ام وجيه».

قالت لها : « مرحباً يا حبيبتي ! »

ـ مرحباً !

ـ هيّا بنا ...

ـ إلى أين ؟

ـ للبيت ...

ـ أي بيت ؟

ـ بيتنا ؛ فما زالت ريحه مشبوبة الشبق ...

ـ لن اعود . صار نهدي ضرعاً يمرع لبناً ...

ـ هل جننت ؟ جسدك كالارض يهيم بالغزاة ...

ـ لن اسلم جسدي للقيط ...

ـ اغتصب اللقطاء كل الاجساد .... الارض باتت زانية ...

ـ صرت اماً.

ـ سمعت اخبارك ... ألا تريدين أن تأكلي ؟ ... والطفل ؟
ـ أعمل ....
ـ البشر لا يعملون ... يبحثون عن اللذة ... انطلقت غرائزهم المتوحشة . باتت المذبحة قريبة . لا بد للخاطئات من ان يبدعن وهماً تنسرب فيه شهوة الدم . نحن في عصر نبيه بغي . انت بعض الوهم . ازرعي فراشك على قارعة الطريق وانثري عليه رائحة مثيرة . اشرعي جسدك للقتلة . الا تشمين رائحة الحريق والدمار ؟ انت ينبوع فليرتووا من عرقك لعلهم لا يغمسون شفاههم في دم العذارى . انت ام فقط ... ام دعيّ ... لقد انتحرت الامهات الحقيقيات ... احترق الحنان في اللهب الاسود ... نضع ابنك في ملجأ أيتام مع من بقي من الاطفال . ... تعالي إلى بيتي فهم يدفعون الثمن ...

٣ -

كان على باب السجن آنئذ رتل طويل جاءه قبل ان تبزغ الشمس وهم يتدافعون وشرطي يأمرهم بان يحافظوا على نظام الدخول. همّ الياس بأن ينضم اليهم لولا ان امه قالت له : « ما زلت صغيراً بعد . »

كان يدّعي كل منهم انه جاء قبل الآخرين وان جريمته اكبر وعلى الباب شيخ يأخذ اعترافاتهم .

ـ أنا قتلت وهذا الدم على يدي !

ـ أين الشهود ؟

ـ لم يحضروا ...

ـ لماذا ؟

ـ سبقوني إلى الداخل ...

ـ لماذا ؟

ـ لأنهم قتلوا والدماء على ايديهم ...

ـ ماذا قتلوا ؟ ...

ـ قتلوا وكفى ... كما فعلت انا ... عليك أنت ان تكتشف الضحية ...

ـ أنا سرقت وهذا دليلي معي ...

ـ من أين لك هذا ؟

ـ من المسجد والكنيسة ...

ـ لماذا سرقت المسجد والكنيسة ؟

ـ لأن الابواب كانت مغلقة ...

ـ كان عليك ان تصلي ...
ـ جئتهما عندما نام المصلون ...
ـ لمَ لم تجيء مبكراً ؟
ـ كانت الشمس بعيدة ... لم ارها ذلك اليوم ...
ـ لماذا تنتظر الشمس ؟
ـ أخلفت موعدها معي ...

ـ أنا زنيت بامرأة قريبي ...
ـ لماذا زنيت بامرأة قريبك ؟
ـ كانت تريد ان تمنح ، تلوب في ارجاء بيتها عن شيء تعطيه . لم تجد غير جسدها ...
ـ لماذا أخذته ؟
ـ لاني مولع بالعطاء ...
ـ انتزعت منها شيئاً مقدساً يفقرها ولا يغنيك ...
ـ لم ألحظ ذلك ، فلم تكن في الطين ...
ـ ألا ترى الطين في الجواء ، يحجب كل شيء حتى الشمس ...
وقف الشيخ وقال : ادخلوا جميعاً انا اعرف انكم جائعون ...

ـ ٤

لم تجد جورجيت بدأ من ان ترافقها فامتطى الثلاثة سيارة المهندس إلى ملجأ الايتام .

استقبلهم الخوري سمعان بالترحاب واخذ يداعب الصبي وامسك بالسلسلة الذهبية التي في رقبته فأحس ان شيئاً ثقيلا في طرفها فأخرجه وإذا هو صليب قديم . قلّبه فوجد على قفاه كتابة يونانية : الأمير الياس من الامير جورج .

ـ من اين لك هذا الصليب يا صغيري ؟

ـ لا اعلم ...

ـ من اين له هذا الصليب يا سيدتي ؟

ـ قالت لي امه ان عائلته تتوارثه منذ عهد بعيد ...

ـ مسيحي اصيل ...

ـ بل هو مسلم ...

ـ ماذا تعنين ؟

ـ يبدو انه من اصل روميّ ولكن أجداده كانوا في جيش الانكشارية ، وبعد ان حل هذا الجيش جاءوا فلسطين . كنيتهم هولو آغا ، فهو الياس بن هولو آغا بن الياس آغا بن هولو آغا إلى عدة اجيال ... قتل ابوه في ظروف غامضة ... أجهل لم دخلت أمه السجن ، ولكني اعلم لم انتحرت ...

ـ انتحرت ؟

ـ نعم ....

ـ لماذا ؟

ـ لم يكن بيدها الخيار ... لم تستطع أن تفعل شيئاً آخر !
قال الخوري سمعان للصبي مازحاً : « مسلم أنت ام مسيحي ؟ »
ـ لا ادري .
قبلته امه وأخذه ابونا سمعان من يده فانضم صديقي الياس إلى رتل الاطفال الذين يتمخطون بأكمام اسمالهم .

امتلأ الدير بالاطفال الذين انتحرت امهاتهم . بات انتحار الامهات الحقيقيات داء عمّ الأرض ، لانهن أردن الا يكون الأطفال ابناء زنى . وأخذ دير الخوري سمعان يضيق بالوافدين قبل بزوغ الشمس، وارهقه ضجيجهم فعلمهم الرقص على الحبال خلافاً للتعاليم المسيحية .

اخترع لهم اغنية ضمنها حبه ، وطلب إلى المهندس ان يوقع لحنها. ثم جاءت عجوز شمطاء فغنتها وسقطت اسنانها الصناعية فلم يضحك الاطفال واستمروا على الرقص والغناء .

ثم اخذ الاطفال يأكلون من فتات المائدة الشمالية. اخذ الاطفال يهرمون قبل ان يشبّوا وما استطاع صديقي الياس ان يتعلم الرقص على الحبال . كان يحب العزلة وغبياً يئس منه الخوري سمعان فجرّه من يده ناحية تمثال المرمر . قال له : « أعرفته ! »

قال : هذا الذي باع الاطفال قميصه واقترعوا على دمه.

— من اين لك علم ذلك ؟

— عرفته عندما طلب اليّ ان اقفز قفزة إكليل الشوك فجاوزت قمة الجبل وامتحت من ماء الوادي حتى سخا الينبوع .

— لكنك جائع ، ولذا لم ترقص على الحبال ...

— انه الظمأ فقط .

— الماء كثير في الدير !

— لونه اسود ...

— هل شاهدت ماء بلون آخر ؟

— الدير سخي بأنواره غير انك تجرنا إلى الوحل ....

ـ لماذا ؟
ـ لاني مسيحي حقيقي .
ـ قيل لي إنك مسلم ...
ـ الزعم الوحيد الصادق ...
ـ انضم إلى القطيع ايها العاصي !
ـ انهم جلادون . كتبة تقارير ...
ـ من علّمهم ذلك ؟
ـ الفتات ... قل لي ماذا علّمتهم انت ؟
ـ لم يتعلموا مني شيئاً ... أنا يجهلني الذين يهرمون !
ـ لم آويت هذا الحشد ؟
ـ كنت وحيداً ... أمرّ بالحياة ظلا . خصب حياتي حنّ
إلى طفل . همّت يداي بأن تعانقا العالم ...
ـ لمَ لم تضاجع هذه الأرض ؟
ـ لانها عقيم ...
ـ أنت إذن اب ...
ـ أب ظل.
ـ الظلال هي الحقيقة الوحيدة .
ـ لمن يرى !
ـ ألم تر ؟
ـ تبعثرت ذرات النور قبل ان تلامس جدران الدير ...
ـ لم لم تلمّها ؟
ـ كانت يداي مشغولتين عنها بالعناق .
ـ لا أرى اثر القبلة على شفتيك ...
ـ كانتا ترقصان على حبل ...
ـ لم يغرك جدب الصحراء
ـ لانها بلا واحة ولا رمل .
ـ لم تعفّر قدميك في وعثاء طرق المطاردين .

ـ انا حافي القدمين .
ـ لم لم تسر إذن ؟
ـ كان الاطفال بلا مأوى فاحببتهم .
ـ ولهذا قصوا قدميك .
ـ فرحت بهم .
ـ قل لي متى نغادر الدير ؟
ـ عندما تبزغ الشمس!
ـ واذا لم تبزغ ؟
ـ غادرتموه في الظلمة ...

ثم سمع الاطفال بالحرية فهدموا ابواب الدير وعاثوا في الارض فساداً .

ـ ٦ ـ

خرج صديقي الياس يبحث عن امه في المدينة الشقراء المترعة عروقها برائحة الياسمين ودخل إلى الملهى .

كان الشاربون يفرغون كؤوسهم على جسد امه . عندما سكرت أظافرها قفزت إلى المسرح ورقصت رقصة النار فظللت عيني الياس سحابة سوداء حمراء ورأى امه تحترق . صفق النادل طرباً فانصاع الحشد لأمره ودوّت الصيحة في ارجاء المدينة كلها وقفز الزعيم إلى المسرح خطيباً ، غير انه امسك بالحبل ورقص طويلا . ودخل الاطفال إلى الملهى فرقصوا مثله على حبالهم فنسي الحشد الراقصة الأولى رغم أوامر النادل وتصفيقه .

قال الياس لامه : لم لم أرك ؟

قالت له : كنت حبلى ...

ـ أين أخي ؟

ـ جاء طرحاً ....

ـ بماذا سميته ؟

ـ التاريخ ...

ـ أين أخي ؟

ـ أخذوه مني ...

ـ إلى أي قبر ؟

ـ لم يدفن بعد ...

ـ ما زال حياً ؟

ـ ولد ميتاً .

ـ ميت بلا قبر ؟

– حملوه معهم إلى المدينة الشقراء .
– لأنه جميل ؟
– لأنهم يبحثون عن رمز .
– ماذا يعطيهم طرح ؟
– مالا يستطيعون ان يأخذوا ...
– ماذا لو اكتمل اخي في احشائك ؟
– خاف ان يبقروا بطني ...
– كان اذن غبيّاً ...
– وما زال ...
– كيف اراه ... ؟
– لا تستطيع ان ترى طرحاً لأن لك عينين . إنتظر حتّى يكتمل نموّه .
– لا قدرة لي على الانتظار .
– فهمك المعتوه يبقر بطن امك .
– اريد ان ارى ... !
– لن ترى ... لأن سريري على قارعة الطريق .

ثم طرحوا صديقي الياس ارضاً . وجروه إلى حيث تنتحر الأمهات وأغلقوا عليه القضبان الحديدية لانه لم يرقص على الحبال ولم يصفق مع المصفقين .

- ٧ -

فتح السجل وسأله الكاتب : « لم أنت هنا ؟ »
- لأني غنيت .
- ماذا غنيت ؟
- نشيد الشمس !
- ولكنها ما بزغت بعد ...
- غنيت لأنها لن تبزغ .
- من قال لك ذلك ؟
- اخي ...
- اين اخوك .
- مات قبل ان يولد .
- ماذا فعلت بجسده ؟
- اعطيته للذين لا يأخذون .
- ثم ماذا بعد ؟
- الانتظار !
- انتظار ماذا ؟
- بزوغ شمس لا تبزغ .
حكمت عليك المحكمة بالسجن حتى ترقص على حبل .

- ٨ -

رقد صديقي الياس على المرتبة الحجرية فانبرت بقّة تقول لأخرى :

— أليس هذا هو الذي شربنا دمه ؟

— لا . هذا على بداية الدرب . أما الآخر فقد كان انساناً .

عندما فتح له الحارس الباب توقف قليلا حتى يتعوّد الظلمة . وضع اصبعه امام عينه فلم يرها، وتلمّس أعضاءه . كانت غائبة عن حسّه واكتشف حقيقة غريبة ، وهي ان لا وجود لها وانه عينان فقط . ثم تحسس المكان ، فقد آن له ان يضطجع قليلا .

ندّت عن البقة ضحكة : « إنه يرقد حدّ الموتى » .

وتلمّست يداه من لا يتنفس . هيكل عظمي . سأل نفسه : « منذ متى مات الانسان في المدينة الشقراء ؟ »

قالت البقّة لرفيقتها : جاهل !

قالت الأخرى : مات لانه انتظر بزوغ الشمس .

وجد الياس نفسه مرة أخرى حيث ينبغي له أن يكون، ورأى أن عليه ان ينتسب إلى أرض وقضية ضائعة كي يستعيد إنسانيته فاختار « عين ماهل » منشأ له وصار لاجئاً . فاحترم البقّ إرادته غير ان الحرّاس لم يفطنوا لذلك . وقضى سنين عديدة بلغ الأطفال فيها أوج رقصهم على الحبال ثم تذكروه فقالوا : « لعلّه تعلّم في الظلمة ما لم يتعلم في النور ! »

كان الياس آنئذ مشدوداً إلى الحجر بأعضاء لا وجود لها . أما أمّه فقد شرب جسدها دناناً كثيرة وسكرت أظافرها حتى ما تعي وضاجع جسدها المشرع كثيراً من الرياح . وتسلّق الاطفال

الهضبة واستأذنوا من أصدقائهم الحراس ومن قطيع البقر أن يرقص معهم رقصتهم الجديدة ، فلا بدّ أن تستهويه. غير ان الظلمة سحقت قدميه رغم ان الاحتفال كان وثنياً بدّلت حرارته الاطفال .

كانوا رتلين طويلين : الراقصون وحملة السياط : هؤلاء يرقصون وأولئك يصفقون. وسار صديقي الياس بين الحبال والسياط. واهن القوى ضال الطريق ، تسحقه السياط والحبال . كانت سبيله شاقة وبعيدة . وأخذ الاطفال يرمونه بالشوك فوصل إلى تخوم المدينة الشقراء فدفعوه خارجها ، فوضع اصبعه أمام عينه فرآها وعادت أوصاله إليه .

قال : صرت إنساناً .

وقف في اللوفر أمام فينوس . لماذا تأخرت مادونا ؟

فغرت عيناه شدقيهما تصليان . تسمّرتا على المرمر المفتون بتقاطيع جسده . قرأ ان قامة فينوس مائة وثلاثة وسبعون سنتمتّراً وكذلك مادونا .

— آه ! لماذا تأخرت مادونا ؟ لقد استفاقت منذ زمن طويل كأنه الأبدية . هيأت له قهوة الصباح ثم سقت الازهار وعمدت للقيثارة تعدّ درسها . تأخّر العازف بالدرس لانه ينظر الآن بشغف اللقيط إلى آماد زرقة عينيها . من أين جاءت بهذا الغجري المهذار الذي يدور حولها كصرصور حتّى اذا التفتَ اليه شذراً أقعى وراء قيثارته . جاء من شعب لا اصل له ولا جذور ولا هجانة ، من أرض لم تمرع بعوسجة إنسانية .

— لماذا تأخرتِ يا مادونا ؟ هل وضع يده على يدك ؟ فررت من بيتك يا مادونا لأن ركبته لامست ركبتك البارحة وباعدتيها عنها عندما دخلت . نعم كنت بعيداً والغيرة تقصر المسافة بين ركبتين . إذا لم يكن زعمي صحيحاً لماذا حركت ساقك لما دخلت ؟

ربّتت مادونا على كتف الياس :

— ما انتهيت بعد من صلاتك أيها الوثنيّ . كأني بك راهب ، وماني تركع امام هذا الصدر الذي لا يخفق ...

— لماذا تأخرت يا مادونا ؟

— كي تحبني ...

— طال درسك يا مادونا .

ـ هتفت لرودريكو أني متعبة اليوم .
ـ أين ذهبت إذن ؟
ـ لم أغادر البيت .
ـ من جاء إذن إلى البيت ؟
ـ أوراق خريفية .
ـ وماذا ؟
ـ ثغاء قطيع بعيد أجفل على لفحة باردة ملأ سريري سأماً .
ـ فراشك المفتون أبد لذاتنا عربة يرقل بها جواد محموم الطراد أرعن الصهيل على درب مجرّة غبراء لا يعي ولا يدرك ...
ـ جوادي سأم ...
ـ عربتي أحزان ومنفى ...
ـ بائس انت ؟
ـ يا للمنفى السعيد !
ـ أيّ نشيد رتلت في سرك أيها الراهب ؟
ـ نشيد الرقص والحبال ...
ـ تظلّ عيناك في قفا رأسك ؟ ألم تشمّ عبقاً نثرته على الفراش ؟
ـ أرهقني الراقصون فتعلّمت فنّ النشوة . بات اريجك دمي ... مادونا ... من جاء بعدي إلى البيت ؟
ـ لا بعد بعدك ولا قبل ! أريد أن أصبح أمّاً ...
ـ أمّا حقيقية ؟
ـ أماً حقيقية !

وومضت عينا مادونا ببريق أزرق، خلل نار سوداء حمراء .ثم جرّته من يده إلى عبادة أخرى .

يوم ورثت مادونا عن جدتها « قصر الاشباح » كانت حزينة لأنها التقت بصديقي الياس . كان آنئذ يهوّم على قارعة طريق يتأبط كتابه . فتى اسمر طويل النجاد ، ضال يبحث عما لا يعلم .

دعاني منصور إلى العشاء فيمن دعا . وطرق الباب الياس فظننت أني أعرفه منذ أمد بعيد . جلس في الزاوية حيّياً ثم تكلّم بعد ان انتهينا مما حفلنا به من تفاهة ،فحدّثنا عن السجون والرقص على الحبال والاطفال الذين قتلوا أمّهم .

– سرّ العصر الكبير الزنزانة الثالثة . تطبق عينيها على قلق لا يهجع . ولد فيها تاريخ المدينة الشقراء . تفسّخ فيها مولود طرح . مصيري أن أشمّ رائحته . يلاحقني كاثم لم يصلب يسوعه . أجترّ فراري منه . المدى الذي يتعثر خطوي على أبده . أظلّ أسيان الهوى ، أحنّ اليه موجع الحسرة ، واهن الأشواق، أمتاح من كآبته صبوة روحي إلى شمس لا تشرق . عصرتني ظلمته حتى آمنت بالنور .

كنت صغيراً صغيراً عندما وقفت وأمي أمام باب الزنزانة الثالثة : أمي الحقيقية . قالت لي : « أنت مشدود إلى تلك الزاوية ... لا خلاص لك إذا لم أولد أنا مرة أخرى ... كن لي أباً . أرضعني من لبانك .... ضعني في قلبك . شدّ علي كبني . لا تسلم سريري للريح . اختر لي مكاناً على نجم . أوهنت قارعة الطريق الأمهات .

– متى تولدين ؟

– عندما تبزغ الشمس .

ثم احترقت امي امام باب الزنزانة الثالثة . فاخترت لي امرّاً من أنبياء العصر فراشها على قارعة الطريق ، أظافر قدمها ظمأى . . .
عندما اصلي تقتعد عيناي أسفل القحف ... ودخلت مادورنا فعشقناها جميعاً ...

- ١١

مادونا يا شراع بحر النجوم ! يا زرقاء العينين ... يا حاملة الشوق ... إقبضي على أجنحة الحياة . أترعي لي هذه الكأس اليباب . شدّي قافلة الموت إلى حلبة نغم أصيل ...

قالت مادونا : Bonsoir . يا للشفتين المرتعدتين ، عصفور طائش بلّل الجحيم ريشه بثلج ابيض ، معطفك ثلج أبيض ، أجنحة ملائكة ، قرطك نوريّ القسمات ، شعرك عوسجة شقراء يرسي ظلال واحة مضيئة في حالك الشقاء .

جلست مادونا قبالة صديقي الياس . قالت له : « ما لنا وللسجون ! »

– أتحدث عن العصر .

– قل لي شيئاً عن الموسيقى واصداء الصحراء .

– همّ العالم بأغنية توقظ الليل فارتشفت شفاهنا ماء البحر الأزرق ...

– ثمّ ماذا ... ؟

– ثم غفا الراقصون على الحبال ، فقد أزفت ساعة الأظافر السكرى .

– لم لم تنم ؟

– لأن أخي طرح .

– أبدع أنت ابناً بشراً سويّاً .

– أنا مشوق لاسطورة .

– الاساطير خرافة ...

– أنا قصاص خرافيّ .

ـ غنّ ...
ـ أغنيّي مجهدة على شفتيّ ...
ـ وعيناي ألم تمنحاك شطآناً خرافيّة ؟
وانتصف الليل فجرّت مادونا الياس من يده إلى قصر الأشباح وأوقدت شموعاً كثيرة وبخوراً بوذيّاً ثم وقفت عارية في ظلال نار حمراء سوداء .
ـ أتحبينني يا مادونا ؟
ـ جئت بك كي امنحك الحياة .
ـ الأشباح ظلال الموتى .
ـ أنا أبشر بحياة تنبع من موتى الأساطير . ألا ترى في عينيّ شعلة الحضارة ؟
ـ هل تحبينني يا مادونا ؟
ـ انا معشوقة فقط أغدق الحبّ ...
ـ يداي كليلتان ...
ـ سأمنحك حتّى تمرع يداك بالخصب ..
ـ لماذا زرعت الأوثان في قصرك ؟
ـ انتقيت لك من كل عصر وثناً حتّى تجعل منك عبادتك عاشقاً .
ـ ومتّى تصلين أنت يا مادونا ؟
ـ أنا الوثن والمعبد والصلاة ...

- ١٢ -

انحنى العازف على كمانه وشد على أوتاره : لحن غجري ، عبد تحرر من طاغية . لما شارف مادونا زغردت بلابل وخفقت أجنحة وانحنى النغم على قدميها ينزف ، يجأر أنيناً ، يتلوّى ، يسحق جسده على أرض تطأها .

تناولت مادونا كأسها . شربت جرعة ما تكاد تبلل الشفتين . حملقت بالعازف . يا للاغراء ! قفز اللحن إلى الأعالي حتى اخترق غيوم باريس الداكنة وزغرد وولول . مزّق ثيابه وضرب صدره ، شدّ شعره ثم عاد إلى الأرض، وما لامسها حتى قفز كملدوغ كي يجاوز تخوم الأرض . انتشت مادونا ودارت في القاعة بعينيها ، فأفرغ الشاربون كؤوسهم وقذفوا بها إلى الأرض فانحطمت جميعاً تحت قدميها . أمّا صديقي الياس فقد شدّد قبضته على كأسه وحدق في قعره يتأمل الزنزانة الثالثة فتكسر وسال دم يده .

– ماذا فعلت ؟ قالتها صفراء ترتعد .

– لماذا تنظرين إلى الآخرين ؟

– مجنون ؟

ربط يده بمنديلها الأزرق الذي دفنت في طياته رائحة ياسمين .

جالت مادونا بعينها في القاعة فانحطمت كؤوس أخرى وغمز بعينه فتى من الناحية الأخرى . قال في نفسه : إنها تنظر إليه. ومن يدري؟ فقد تكون غمزت هي أيضاً بعينها في غفلة عني . لماذا خلق البشر بعينين ؟ لماذا يخفي أنفك الدقيق الحبيب عينك اليمنى عني يا مادونا ؟ ... كأسي فارغة أيها النادل ... كأساً

أخرى ، كؤوساً عديدة ... ياللسكر الصوفي ! ويدي الدامية في يد مادونا وعلى شفتيها ، نعم على شفتيها ...

وقف اللاعب بالمدى . قذف مديته الأولى فأصابت الهدف وكذلك الثانية والثالثة ... نزف قلب الأرض واقتربت الساعة الثالثة ، فخرجت مادونا ولحق بها الياس .

كان القمر لامعاً وراء مادونا كلهفة ذهبية ... وقف أمامها الياس : « هل تحبينني يا مادونا ؟ » أغلقت عينيها وحنت رأسها فانصهرت الشفاه الأربعة ، ذابت في شعاع القمر الذي ضحك كقدر دون أن تنظر اليه .

اقتربت الساعة الثالثة . انتصرت السماء على الأرض فأغدقت الحب والمسرة على قصر الاشباح .

ـ أنت ساحرة يا مادونا ... لماذا تمرع أصابعي صلاة عندما تلامس وجنتيك ؟

ـ أبحث عن الانسان فيك !

ـ انا من أرض مات فيها الانسان محترقاً في الزنزانة الثالثة . كان عظاماً باردة . جهدت في أن اوقظه ، عالجت الحياة كي تدبّ في جمجمته ، ولكن الشمس لم تشرق .

ـ جئت كي أوقظه في قلبك

ـ هل يولد الانسان في معبدك الوثني ؟

ـ لا تبزغ الشمس إلا في ظلال الأوثان فاختر وثنك ...

ـ لقد اخترتك يا مادونا .

ـ أنا الهة !

ـ أنا عابد أصيل ...

ـ لن تصلي لي قبل أن يولد فيك الانسان .

ـ لا صلاة إذن في هذا العصر .

١٣ -

وقف القمر امام مادونا ووقف الياس حدّها على الشرفة وامتدت الغابة عارية من كل شيء الا من الورق والنسغ وعشاق يسمرون مع الليل، يهصرون قدوداً وغدائر ذهبية. ودلف شبحان من الممر الضيق المولع بالخطا العاشقة. علق ثوب الفتاة في عوسجة وانفلت طائر من قلبها مروع الجناح فتلفّت اليهما القمر. غارت مادونا وشدّت بالياس اليها كي تستأثر بالأشعة الفضية، فصاح بودا من الداخل: عندما يولد الانسان يبدأ موته.

وانساب الممر الاخضر في الغابة ولحق به العاشقان. وزأر الاسد في حديقة الحيوان القريبة وغردت طيور. ورمى العاشقان قطعة خبز لبطّ البحيرة الصغيرة، وتبعا خطوات الممر والقمر يغلل قامتيهما بالفضة حتى وصلا إلى القارب فانسرب على موج قبلة طائشة توشوش في أذن الليل قصة الحياة. وأخذ الشمع يذوب نقطاً ملونة أمام الاوثان، ومدّت عين مادونا الزرقاء شراع الهوى.

اهتزت الستائر الزرقاء واصطفقت وارتجف لهب الشموع. وحدّق الياس بخيالهما الذي ارتسم على الجدار واوصدت الابواب جميعاً كي يحفر الزمن شبحهما في الحجر فيغدو الياس ومادونا وثناً من الأوثان، غير أنهما لم يجدا عابداً.

كانا لوحة خطّها نور معتم على جدار. وهبت العاصفة مرة أخرى فاهتزت الاوثان جميعاً. وذرف بودا دمعة وحيدة كأنها تؤذن بالرحيل.

— أترين يا مادونا ظلنا على الجدار ؟

— أرأيته أنت ؟ إنها أجمل لوحة أبدعت.

ـ المجانين هم الذين يرسمون على جدار .
ـ بل الأبرياء
ـ رسمت على جدار المدينة الشقراء ... كانت الصورة باهتة ـ
ـ كان الجدار يعلو ...
ـ ويصغر الانسان ...
ـ والسلاسل تعقد خطا الزمن .
ـ فانسابت ألواني كالرحمة .
ـ لا رحمة بلا رب ، لا لون بلا انسان ...
ـ ولكني صليت ...
ـ صلاة لا معبد لها ولا وثن .
ـ كانت الشمس تحرق الرمال
ـ لانها لم تبزغ .
ـ ولذلك صليت .
ـ الصلاة نور وأظافر أملك سكرى .
ـ هلّم نركع امام دمعة بودا.
ـ بودا لا يتقبل السجود ، جسدي لا يركع .

وهجعت مادونا على راحة الياس وراح يتجول في قصر الأشباح مبتدئاً من الباب .

كان خنجر مغربي يلتمع في نور الشموع ، يشير اليه أن ينظر إلى المرآة الاسبانية . كان وجهه جديداً عليه وفي عينيه حنان مادونا .

وجد الخوري سمعان نفسه مرة أخرى في الدير وحيداً فسأل المرمر :

ـ أأنت الذي فهت بكلمة الحرية ؟
ـ ما بزغت الشمس بعد ...
ـ خدعتني ، فرقت عني أطفالي .
ـ أنت الذي علمتهم الرقص .

ـ أردت أن يفرحوا .
ـ إنهم سعداء .
ـ ولكني بائس .
ـ ستظل وحيداً .
ـ اريد لي ابناً .
ـ أنت عاقر لانك لم تضاجع الأرض .
ـ دفعتني عن أن أفعل . إرادتك أن أظلّ عقيماً.
ـ لأنك لا تستطيع أن تكون أباً .
ـ ولكني أحب .
ـ حبك من الظلمات .
ـ سفكت شبابي على قدميك . أنر سبلي .
ـ ولدت هرماً .
ـ ألأني ما رقصت ؟
ـ قدماك مقصوصتان .
ـ ولكني أحن إلى الرقص ، إلى أن يمرع المرج خضرة وزهراً ، إلى أن أترع الكؤوس قفزاً ووجداً .
ـ لم يرقص قلبك ، ليس في حناياك وردة برية ، لم تملأ الكؤوس من دمك .
ـ سددت عليّ سبلي ، زرعت دربي من أشواكك .
ـ لأني الطريق .
ـ سرت عليك
ـ دستني .
ـ وضعت حياتي على راحتك .
ـ يداي مسمرتان.
ـ ركعت قدامك .
ـ لأنك لا تستطيع الوقوف .
ـ أحرقت شموعي في مذبحك .

ـ لأنك أنكرتني .
ـ قل لي كيف أعرفك أيها السرّ .
ـ كن أباً حقيقياً !
ـ بلا أبناء ؟
ـ أبدعهم .
ـ لست إذن عقيماً .
ـ من لا يبدع عقيم .
ـ أين أجد ابني ؟
ـ على قارعة الطريق ... ما زالت الأبواب مفتوحة .
ـ أتركك وحدك وأنا خادمك ؟
ـ أنا الوحدة الأزلية ، لا يعرفني غير وحيد .
ـ لن أفارقك حتّى أعرفك ...
ـ إبحث عني في القفار ...

نهد الخوري سمعان إلى رحلة في تخوم الأبدية . رأى لأول مرة أن السماء زرقاء لا أبعاد لها، فعلم أنه بات بريئاً. وافتقد نور الشموع وهو يتأمل الظلام المضيء .

— كيف يمكن لكل هذه الزرقة أن توجد وتمتد عبر اللانهاية دون شمس ؟ هذا الصفاء الذي لا عمق له من أين يجيئه الضياء ؟

والتصقت ذاته بالزرقة وبات يرى كل شيء أزرق لأن عينيه زرقاوان . لم يعد الأمد الفسيح سوى قشعريرة سرت في كيانه وعرق تصبب من جسده له رائحة الدم . كانت الأرض فريدة بجمالها أخضرت جميعاً حتى الشوك . زهت أشجار وتفتحت ورود، فغذّ السير لا ينتبه لخطوه . وأخذت النجوم الصغيرة تستحمّ وتزقزق في الأجواء كعصافير الأشجار تمدّ أيديها الصغيرة عبر المسافات .

تحرّر الخوري سمعان من اليد التي تدفعه منذ ما ولد وتنسّم صدره رياحاً جديدة . بات خطوه طليقاً فذهب إلى البحر .

كان صافياً هادئاً لا شراع فيه ، لا مجداف ولا مرفأ يستمتع بحنينه وشدوه كبلبل عاشق ، فمدّ الخوري سمعان قدمه كي يتعمّد بثبجه . وخيل له أن المرمر يسير اليه على صفحة الماء في هالة من الشموع المحترقة . نادته المدينة الشقراء فحنّ إلى أطفاله .

كان وحيداً وعاشقاً على درب العودة فجاءه صوت من الأبد الخفي أيقظ الدفء في دمه .

– سرّي إكليلي ...

– قل لي أيها المرمر الأزرق كالسماء ، كعيني مادونا . قل كيف أحمل عنك أثقال إكليلك .

– أنت سائر اليه لأنك عرفتني . لن تنكرني لأنك أنا .

– دعني ، أريد أن أضاجع الأرض ... شبقي نهم . يزبد حسّي كجمرة عاصية ، أرتجف ، أهتزّ . سكرت ، أعربد . شهواتي ترغي في دمي والأرض أمي الحقيقية تشرع جسدها على جناح الأفق الأزرق ، خلعت كهنوتي ، وحش مبدع سكن روحي ... إنها لحظتي الوحيدة ... أريد أن أضاجع الأرض .

– ولكنها حبلى

– متى أكون إذن أباً ؟

– بتّ أباً ... أخشى أن تلد الأرض طرحاً ... حانت لحظتك قبل بزوغ الشمس .

– متى ؟ متى ؟ متى ؟ قل لي متى أكون أباً حقيقياً ؟

– أنت أب حقيقيّ بلا ولد ...

– وضعت حياتي على راحة الأرض الرحيمة .

– يداها مسمّرتان .

– ركعت قدّامها .

– لانك استطعت السير على دروبها .

– أحرقت شموعي على مذبحها .

– لأنك أهل لأن تحمل اكليلك .

لم يغمض الليل عينيه . غدا بعضاً من البحر والسماء والمرمر مضيئاً كفكرة . وتوقّف الرحيل فما تسعى قدم سوى قدم الخوري سمعان . كان يغذّ السير ، على نداء الأطفال – إلى المدينة الشقراء والضياء الأزرق ينفذ أكثر فأكثر إلى قلبه . قلق مسعور كغريزة متوحشة كان يدفعه لأن يسرع . أراد أن يصل قبل أن يغرّد البلبل ، قبل أن يبلّل البراعم الندى . وانتشرحوله النور فظنّ الفجر قريباً .

وأخذت ريح الصباح تفضح له اسرارها ، توشوش له عشقها يوم كانت فتاة شقراء كمادونا ... أما النجوم فقد سردت له قصة الوجد البريء .

في الأيام الموغلة في أعماق القدم التي ولد فيها الزيتون والانسان لطت « عين ماهل » في المكان الذي التقى فيه الجبلان وأسرّت في أذن الله مبدعها أن تظلّ حيثُ هي إلى أن يزول الزمن فسوّرتها ادغال الزيتون والبرتقال وتفجّر ينبوع من الأعالي كي يسقيها ، وعميت عنها عيون الغزاة غير فاتح ولد في مزود جاءها ذات يوم واهناً فأغرقت قدميه بالطيب . لم يقل آنئذ شيئاً فقد سبقه إليها الحب ودلّه على سبله فغادرها دون أن يقول إلى أين .

غير أنّ البحر في موجة من موجاته العارمة سحق الشجر وزحزح الصخور وقذف من تحتها كائنات بشرية مسلحة فقتلت وأحرقت. ورحل أهل «عين ماهل» عن قريتهم فما عادت لماهل عين ترى .

وقف الياس أمام الجدار الآخر ثم أمام جدران كثيرة .

– لماذا كل هذه الجدران ؟
– العاصفة تزأر وراءها .
– ماذا لو غرِقت في الثلوج ؟
– ما حانت ساعتك بعد .
– من هذا المكبّل بالأغلال ؟
– إنه الإنسان.
– من هذا العاري الذي يقفز فرحاً ؟
– إنه أيضاً الإنسان.
– الفرح في كل مكان .

ـ في عينيك نار سوداء حمراء ...
ـ ولكنّك أريتني يا مادونا الانسان .
ـ أنت ما اخترت بعد
ـ الأوثان سعيدة ...
ـ لأن كائناً جديداً ولد فيك ...

استمع عاشقا البحيرة إلى فرقة نوريّة وقفت أمام نوافذ قصر الأشباح، وغرقا في قبلة طويلة ورتلت الأوثان أغنية المجد الأبديّ. وأخذت مادونا صديقي الياس إلى سرير من ياسمين فحلّ رموز الأحجية وجمع الوثنيين، فخرج منهما واحد عارٍ يقفز فرحاً في أغلاله واختار مادونا ... واقتربت الساعة الثالثة .

حلم الخوري سمعان وهو مفتوح العينين أنه بات ملكاً للآفاق البعيدة ، البعيدة ... وحملقت به كآبته عبر ألوان العالم المترع بقوس قزح... صار كل شيء شفافاً صافياً ينفذ إلى أعماقه . وحنت الأرض على راهبها ، أغدقت عليه البراعم رائحة ياسمين رقيقة ونهدت اليه الوحوش والحشرات وكل ما يهيم على الدروب . سألوه أن يغني لهم .

فقال : بعد قليل ...

وجد نفسه على باب المدينة الشقراء وصراخ الأطفال يملأ الجواء فقد أمّ المدينة أهل «عين ماهل» وافترشوا جميعاً قارعة الطريق ، وأشرعوا أجسادهم على سرر بغيّة ...

فاحت رائحة الحريق والدمار المثيرة وغمس الأطفال شفاههم في دم العذارى . وعلى باب الزنزانة الثالثة تأهبت الساعة كي تدق ثلاثاً .

١٥ -

امتدّت يد الخوف إلى سماء المدينة الشقراء وسوط الجلاّد إلى جسدها الحيّ . طغى الخوف فارتجفت جدرانها واختبأ الخلق يسترقون النظر واجفين ، كل هلع على نفسه . طرقت أبواب كثيرة وجرّ نساء ورجال من النواصي إلى المسرح الكبير .

لما دخل صديقي الياس كانت أظافر أمه سكرى حتى الوهن .

قال لها الخوري سمعان : ألست الأرض ؟

- أرض زانية

- أريد ابناً لي ...

- لست أماً حقيقية ...

- أمرني أن أضاجعك .

- أمرك أن تضاجع أماً حقيقية .

- أين هي ؟

- ستولد عندما تبزغ الشمس .

- أشواقي لا تحتمل انتظاراً آخر .

- الشمس موعدها قريب .

قال الياس : أعددت ذاتي لميلادها ، ثديي يخصب لبناً .

- من أنت ؟ قالت أمّه ...

- أنا ابن الزنزانة الثالثة ، أنا الياس بن هولو آغا ...

- أنت الذي أنكرتني ...

- بل أنا ابنك الذي أردت أن تكوني أماً حقيقية ...

- اللهب القاتم في عينيك وقلبك .

- لأني بلا أم !

ـ انتظرها أنت الآخر .

وجلس الثلاثة يحملقون إلى الشرق ينتظرون الشمس فسمعت آنئذ جلبة كبيرة ودقّ النفير .

قال سمعان : إنهم أطفالي !

قالت جورجيت : إنهم ابنائي !

قال الياس : إنهم رفاقي !

وامتلأ المسرح الكبير بالراقصين . فرح الأطفال بقدوم الياس وأطربهم أنه لم يخلف موعده معهم وتحركت الحبال فصبّوا خمراً كثيراً على جسد امه فقامت تترنح . لم تصل إلى الخشبة ولم تعدإلى مكانها ... ظلّت تترنح .

أخذ دوار الرقص بالزعيم فنزع المهماز من جزمته وغرزه في رأس الخوري سمعان وحذا حذوه آخرون . لما اكتملت الدائرة رأى البحر أزرق صافياً والسماء وخرّ ميتاً فالتمعت دائرة المهاميز بألق ملائكي أضاء وجهه ومسح عن جبينه الدمّ وارتدى وجهه لون البحر .

لعق الزعيم نقطة من الدم بلّل الأرض وقال : « مذاق نادر ! » ثم أشار للياس : « هذا الذي قتله ... يجب أن يحاكم ! » وسمع هذا صدى بعيداً . جاءه صوت مادونا قبل الرحيل يقول : « كيف تركتني وأنا في ريعاني ...؟ » ومادت به الأرض قليلا ثم نفذت رصاصة إلى القلب في الساعة التي همّ بها أن ينشد أغنية حياته .

وسّدوا القتيل على كتاب ولفّوه بكفن من كلمات . وضعوه أمام منصة القضاة فحكموا على جثّته بالموت خنقاً ...

آنئذ دقّت الساعة أمام الزنزانة ثلاثاً .

رسائل الى مادونا

مادونا ،

يا سر كآبتي !

كان يجمل بنا لو نهدنا في رحلة إلى أرض بعيدة وراء مطلع الشمس ، أقصى من مغربها ، كيما أباعد بيني وبين قدري . وما حيلتي ، مثل هذه الأرض لا وجود لها إلا في خيال المعذّبين .

كان بوسعي ان ابقى . كل ما حولنا كان يتمسك بي ويشدّني إليك . قلت لك سأعود سريعاً وهو وعد يجب أن أفي به ، غير أني قرأت في عينيك أني لن أراك، أني لن أفعل أبداً. فقد وُجدت الحياة كي تدفع الانسان عن تحقيق رغباته .كان عليّ ألا أفارقك. وإني لأجهل كيف ولماذا فعلت . تركتك ولا رغبة لي في العودة للمدينة الشقراء، على فتنتها وإغرائها . لا هدف لي فيها . وماذا عساي أجد فيها؟ فأنا غريب هنا. حتى الوحشة تبدّل وجهها وبشرها. فما أعرف أحداً ولا شيئاً . تضلّ أصابعي بحثاً عمّا تتمسك به كي توقظ فيّ شهوة الالتصاق بالأرض فيبتلعها تيه غير إنساني .

أريد أن أبوح لك ببعض اسراري الصغيرة التي خبأتها عنك . كنت تحسين بها — أنا أعرف ذلك — ، تودّين أن تسأليني عنها ثم تجدين موضوعاً آخر . كنا نكذب معاً على نفسينا ، نفرّ من هذه الأسرار .

كانت كلما غرقت عيناي في زرقة عينيك تعصف في كياني دموع ثقيلة أجهل كنهها فتسألين : « أسعيد أنت ؟ »

نعم ،كنت سعيداً حتى البكاء وما زلت .كنت أرى — كلما ثار بي الشوق إليك وانت بين ذراعي — في أعماق عينيك ناراً سوداء حمراء : إنها الخطيئة الأزلية التي ما اقترفتها أبداً ولكنها مع ذلك خطيئتي . جهدّت في أن أتحرّر منها . ظننت أن الدين هو

الذي اتّهمني، وأنها خرافة المسيحية والإسلام. فثرت وجحدت وحدقت بالصورة الذهنية للإله الذي يعذبني فأنكرته. وظننت أني بت حراً من الوهم . غير أني في ساعات القلق المرّ أجدني صافياً كالشعاع . ويطرق هذا الاله بابي كأنه الصمت فأجدف فأجدني أقرب إليه بالقدر الذي أجدّف فيه : إنّه أحزاني الطويلة ، النار التي احترقت بها أمي ...

العودة إلى السجن قاتمة بلا لون ولا أبعاد ، فراغ حيّ ميت ... الحياة فيه من نوع آخر ، لا حياة فيها ، حياة ميتة ... الموت هنا من نوع آخر : كل شيء لا وجود له ، لا يعيش ، لا يتحرّك ولكنه هنا قريب منكَ ، مخيف يسحق وجودكَ بصمت الانتظار لشيء لا وجود له . أنتَ ميت غير أن إحساسك يتوتّر ويقسو ، يظلم ويخاف حتّى الرعب ... أنت في يقظة دائمة تنصت ، تتطلّع إلى ما وراء النافذة الصغيرة تريد أن تعي كل شيء حتّى حركة النور والظلمة ... تعلم أنّها قيد خطوة منك ، تلمسها بظنّك ويباعد بينك وبين حقيقتها رتاج ... ، رتاج تافه ولكنه يعني الحياة بالنسبة إليك : كأس يترنّح في يد ، قبلة طائشة في زاوية ، وشوشة في أذن ، غمرة ذراع لرأس بشر ... بشر حقيقيون في قلوبهم هموم وافراح ... خلال ثوان تبدّل كل شيء حتّى الزمن . إنه هنا الزنزانة الثالثة . لقد وقف وتسمّر في فراغ أزليّ .

عندما فتح لي الحارس بابها عادت طفولتي إليّ . رأيت وجه أمي واضحاً كأنها تركتني الساعة . أحسست براحتها تداعب شعري وبأظافرها تحك ظهري، فانساب خدر طفوليّ إلى كياني . عرفتني حارسة سجن النساء . قالت لي : « عدت أخيراً ؟ »

قلت : نعم !

قالت : ذكرتك كثيراً ... فكرت بك . كنت أقول ، ما حلّ به ؟ ... إحساس في داخلي كان يزيّن لي دائماً أني

سألتقي بك مرة أخرى، وما كنت أظنّ أن هذا المكان موعدنا . قل لي لماذا أتوا بك إلى هنا ؟

ــ لا أدري !

ــ كل السجناء يزعمون أنهم يجهلون جريمتهم ، يظنون أن الإنكار خير دفاع . لن أشي بك ... أنا طلعة ككل النساء ... قل لي لماذا ؟

ــ لقد سرقت .

ــ محال ... سمعت أنك درست ، وليست سيماؤك سيماء اللّص ... لا تهزأ بي ...

ــ كنت جائعاً ... سرقت فكرة صغيرة ...

ــ أفهم الآن لماذا اختاروا لك الزنزانة الثالثة ...

ثم حدثتني عن موت أمي ... كانت عاشقة مثلي يا مادونا وأنا ابن اشواقها . كان أبي فقيراً ، عضواً في منظمة سرية ، كلفته بتوزيع المناشير وداهمته الشرطة ففرّ من النافذة فقبضوا على أمي وساقوها إلى السجن . عندما وضع القيد بيدها سمعت صوت رصاصة دون صدى، فعلمت أنها اخترقت جسد انسان ولم تصدق، حتى ساعة موتها،انه جسد ابي لأنها أرادت أن تحتفظ بجسمها نقياً من أجله ... آخر كلمة قالتها : تحياتي إلى هولو ...

تعلقت بذيلها فأخذوني معها . وأعجب المحقق بجمالها وأبقاها في السجن مع أنها كانت تجهل كل شيء عن الجمعية .

قالت لي السجانة : « كانت فارعة القدّ خضراء العينين ، صوتها عميق حييّ ولذلك راودها المحقق عن نفسها فأبت، فأغرى زميلتي بأن تأتي بها اليه ذات مساء . وهكذا عشت يتيماً .

كان عدد من الاطفال يلعب في ساحة السجن . يناديهم من من خلف القضبان آباء لا أطفال لهم . قلت لها : « أين أمهاتهم ؟ »

لم تحر جواباً ولم ابحث أنا عن جواب . تركت خيالي يبني لكل منهم قصة، غير انني ما فعلت إلا ان درت حول نفسي ولم

أقدر أن أبني لهم سوى قصة وحيدة تبدأ بنار سوداء حمراء وتموت منتحرة لأنها فشلت في أن يظل جسدها وقفاً على زوج مات بالنسبة للعالم أجمع وظلّ حيّاً في حسّها، مضطهداً تطارده الزنزانة الثالثة،وهو يهوم في الأرض فاراً من مصيره. ثم يجد نفسه واقفاً مع السجّان ، وهذا يفتح له الباب قائلا : « تفضّل ! »

حلمت أنك هنا وان اصابعي تتلو على مسمع حسّي مرّة أخرى قصيدة جسدك .... ترسم في الظلّ والفراغ حناياه، كفنان خاف على جمال نموذجه أن ينتقل إلى لوحة . واستفقت مع نصف الليل : كان عبقك يؤرّج زنزانتي ... لقد زارني الياسمين .

مادونا ،

خيالي فارغ من كل شيء حتّى من صورة جميلة . عفن الزنزانة يملأني كسلا رطباً . تراخى ذهني فما تتداعى فيه الأفكار . استفقت في الساعة الثانية صباحاً على صرير باب الزنزانة المجاورة وسمعت وقع خطأ وجلى .

لا أعرف من هو جاري . دققت الحائط مرات عديدة فلم يجب . أظنه يجهل لغة الجدران . أتخيّل انه طويل. عندما يتمضمض صباحاً ويبصق، أسمع صوت الماء قوياً على الأرض . إذا سار في الزنزانة قطعها بخطوات ست ، متزنة متساوية الوقع ، وأنا اقطعها بست ونصف تقريباً، والزنزانتان متشابهتان متماثلتان كعلب السردين صنعتها آلة واحدة على نموذج وحيد . عندما يخرج للتنفس اسمع خفق قدميه واضحاً. لا يجرّهما مثلي. ويتسق معهما خطو الحارس حتّى لكأنهما واحد . أظنّه عسكرياً . بنيت له صورة في ذهني وكأنني أعرفه منذ زمن طويل .

في هذه الليلة لم تتّسم خطواته بعنف الشباب . لقد شاخ في هذه اللحظة . لم استطع النوم حتّى عاد يطغى لهاثه على وقع خطوه . أخذ يئن متوجعاً. وسمعت شهيقاً مكبوتاً فضربت على الجدار : « ماذا ؟ » أجاب : « تحقيق ! » ... وأخذت الظلمة تخف ... أظنّه النهار .

ولكن لماذا أقص عليك أحزن القصص ؟ أنا أعلم أنّ رسالتي لن تصل اليك ولن تذرف عيناك الزرقاوان لؤلؤ الدمع بين سطورها، ولكني اكتب اليك لأني أريد ان أقول لك كل شيء حتّى بعد أن أصبحت وهماً في ظني ... ومن يدري فقد تأخذ

الرياح هذه الأوراق عندما يذروها الحارس المغضب وراء الجدران إلى أرض مجهولة يؤمن خلقها بالكلمة .

قد تقرأين ما كتبت لك بعد أن تمحي ذاتي واصبح صورة من ماضيك صاغتها لك الذكريات ، تختلف عن حقيقتي ، صورة أبدعها خيالك فحاكها من كلمات قلناها معاً وصلوات رتلناها أمام الأوثان . أنا نفسي أحبّ هذه الصورة. بتّ أتوق لان أكونها ، لأن أخلع نفسي لعلّي أبرأ من أثقالي كلها وأغدو مرة أخرى البريء الذي حفر الزمن شبح أشواقه على جدار .

بلّغت اليوم أني استطيع الاستحمام ... إنها منحة عظيمة في هذا العالم الكئيب . فبين الزنزانة والحمام مسافة ليست بكبيرة ولكن السجناء يسيرون فيها بطيئين كي تطول قليلا لأن الهواء يمر فيها نقياً ولأن الشمس ، نعم الشمس نفسها التي تداعب شعرك الاشقر ،تبدو لأعيننا فنحدق بها كشيء نادر ظهر فجأة على الأرض ويختفي سريعاً عنها . لولا قصرك يا مادونا ، لولا انك في قصر الأشباح لقلت عن هذا الممر إنه أجمل مكان في الدنيا : الهواء النقي والشمس ! ... عندما قطعته ملكت الهواء ، كل الهواء . ملكت الشمس ... أصبحت الشمس لي والهواء ، نعم الهواء .

كل شيء هنا فاسد ، كل شيء للبيع وبعملة عجيبة ... إنهم يبيعون الشمس . يطلبون تقارير عن أنفاسنا إذا سارعت أو أبطأت ، عن دقات قلوبنا ، عن ظمأ عيوننا للنور ، عن تحديقنا بالكلمات التي يحفرها السجناء على الجدران ... نصف ساعة تنفس ثمن لتقرير ... كلما خرج سجين إلى الشمس علمنا أن في الجو شيئاً وننتظر في توتر عصبي ذاهل ، تتصلب أجسادنا على سررنا الحجرية حتى يأذن نصف الليل، فيستدعى سجين آخر لمقابلة. وتجلجل بعد قليل الجدران على وقع سوط يرسم في ظهره لوحة الجوع والظمأ للحرية، ثم يعود محمولا فتهدأ أعصابنا ويعود إحساسنا طبيعياً. نسمع ونشم آنئذ. نتنفس فتزكم أنوفنا رائحة بيت

الخلاء كأن جيفة التاريخ تفسّحت على حين غرة، فنعلم أن الساعة قاربت الثلاثة صباحاً ، الساعة التي ينام فيها الجلادون .

أنتظر بشغف محموم ساعة الحمام لعلّي أتخلص من الرائحة التي علقت بي. فالرطوبة والعفن ودبيب البقّ تترك على أجسادنا لزوجة تشبه رائحة وكر الدببة .

جاء الحارس فقال : هيا ! ... أسرع !

— إلى أين ؟

كأني نسيت الحمام والهواء والشمس ...

سار أمامي ... لا تسرع أيها الحارس، فالزمن لا يفلت من بين أصابعك... إنه يواكب دقات قلبك، لا يسبقها ولا يتأخر عنها، لا يتسمّر على الجدران ... الساعة التي في يدك حقيقية تعرف منها طلوع الشمس وغيابها، واكثر من ذلك ساعة الغداء والعشاء ، ساعة تلتقي بحبيبتك وساعة النوم أيضاً. أما أنا فقد قامت بيني وبين الزمن مسافات ترتفع خلالها ملايين الجدران فتحجبه عني . أنا أعرف أن مادونا تحدق الآن في الأجواء الموغلة في أبعاد المكان فيما وراء الأفق ، أعرف أنها في هذه الساعة ترقد — كأنها بلا حراك — تحدق في اللاشيء كي تنفذ نظراتها إليّ عبر المسافة والجدران . إنها تغرق الآن في العدم، تتسمر فيه عيناها الزرقاوان، ترسل لي تحية الصباح وقبلة في الهواء . لقد تواعدنا على اللقاء كل صباح ، كل مساء ... لا تعجل عليّ ! دعني ومسرّاتي المستحيلة .

أنا أعرف أنها الآن على سريرنا تتلمّس همسنا الحيي ، تبحث عنّي بعينيها الدائمتي الصحو ... تمهّل أيها الحارس إنها الشمس ، إنه الهواء ...

وقفت في رتل المجرمين المستحمّين فافتقدت زميل زنزانتي الذي لم أره أبداً ...

كل صباح ،كل مساء، أنفذ بروحي من جدران السجن ، أطير

اليك يا مادونا . أداعب خدّك ، أقبّله ... أقبّله ، أتشبّث بسعادتي الوحيدة، غير انها تفرّ كغيمة يطاردها إعصار فأجدني بعد أن ينتهي موعدنا أعصر في أنفي رائحة التراب ، أمدّ يدي إلى الجدار ، أشدّ على جسد الحجر لأن معذّباً ، إنساناً مثلي شغف بمثل أعلى ، جلس حيث أجلس ، نام حيث أنام ، امتقع وجهه خوفاً ، ارتجفت أعضاؤه ترقباً ، وهنت نفسه ، تقلّصت أعضاؤه ، وقف شعر رأسه على صلصلة الأقفال . ابتسم لخيالات ماضيه وأظنه بكى ، بكى كثيراً ، ومخدّة القش ما زالت نديّة تنثر ملح الدموع ... أتنفس فيملأ قلبي وعيني بخار دموعه . أثره يملأ هذا العالم المقبور .... لقد امتلأ البق من دمه ومع ذلك فقد كتب على الجدار ومن دمه أيضاً كلمة : حرية .... إنها عهده مع المجهول ...

لماذا بالدم ؟ تطفأ الأنوار وترقد الزنزانة في ظلام أسود كجناح البرغش . أضع إصبعي أمام عيني فلا أراها ، يختفي كل شيء إلا وقع خطوات الحارس وتبقى هذه الكلمة مرئية كأنما مزج سلفي دمه بفسفور لامع ... أسهر مع هذه الكلمة لأن لعلعة السوط لا تبيح لنا النوم حتى يحول الجو أغبش فأعلم أنه النهار ويهدأ السوط فتتقلّص ملامح الكلمة وتفقد بريقها الليلي فلا تلتمع في النور .

زحف الرتل خطوة ثم تسمّر على الإسمنت الذي شقّقته عوارض الطبيعة ... التقط الذي أمامي عقب لفيفة من أحد الشقوق .

– معك كبريت ؟

ونفث الدخان فخرج دوائر ضبابيّة. وسعل. ثم امتص نفساً آخر. وتقدّم الرتل خطوة أخرى وسعل. وتسمّر أيضاً، والهامات محدودبة تحت ثقل لا يرى .

– لم أنم البارحة . كان الجوّ حاراً .

– لن تنام في الشتاء . سيكون الجو بارداً .

ـ ارتفعت أسعار الحشيش في السجن .
ـ قانون العرض والطلب . بات عدد السجناء كبيراً .
ـ أخرجوا علياً البارحة .
ـ لن يجد عملا . سيعود قريباً .
ـ المحكمة مغلقة في تموز .
ـ وفي الشهور الأخرى ...
ـ زارتني أمي البارحة . لم تأت لي بهدية . كانت جائعة .
ـ جاعت سبعين عاماً .
ـ قل لها أن تسرق .
ـ سرقت ولم يقبضوا عليها .
ـ سبعون عاماً من سوء الطالع .
ـ نجح أخي في فحص الشهادة . كان الأول .
ـ وأنت ألم تنجح ؟
ـ بلى . لم أجد عملا فجئت إلى هنا ... لو يجيء أخي !
ـ إنّه غبيّ يصرّ على الجوع ...
ـ في إناء القمامة أكل فاخر رماه فيها الجنود، بعد أن انتهى الضباط من غذائهم .
ـ أرى أنّك سبقتني اليوم .

استمعت إلى هذا الحوار وأنا أفكر فيك ... أعلم أنك الآن تذرين الرمال الناعمة في مياه بحر الشمال وتداعبين بقدميك أمواجه الخفيفة ... وخطا الرتل خطوة ثم تسمّر . وبت أمام الحمّام العفن الذي تختلط في ألوانه الزائلة قذارة سمراء ... صرت في الظلّ الكئيب الرطب، رغم حرارة تموز، وفي الباب يقف مجرم آخر .

لم أحدثك من قبل عن « أبي رياح » . إنه أهم صفحة من صفحات تاريخ السجن المهترئة منذ موت ابن تيمية . قد لا يوقظ في خيالك الجميل هذا الاسم شيئاً . إنه أول سجين دخل هذه

الأمكنة وأكبر مفكر في بداية عصور التخلّف . كان ذلك في عهد صلاح الدين . أراد السلطان في أوج انتصاراته أن يقطر الفكر إلى عجلتها. وأبى ابن تيمية إلا أن يتقدم رايات المجد ويملي عليها طريق التاريخ، فسجنه صلاح الدين . لم يكن هذا المكان سجناً آنئذ . كان أجمل وأعتى قلعة في البلاد في ذلك العصر : هدية السيف للقلم . ترك العاهل المفكر وحيداً ومنحه ورقاً وأقلاماً كثيرة وسمح لأخيه أن يسجن نفسه معه كي يسجّل أفكاره. ونسي صلاح الدين ابن تيمية في غمرة فتوحاته ، فانتهى الورق وكانت أفكاره ثرّة غزيرة وأيامه قليلة لا تحتمل الانتظار فخطّ بالفحم على الجدران آخر كتبه، كما يفعل المجانين ، وهو يرتجف برداً . عند آخر كلماته رحل عن هذا العالم وبدأ رتل الجائعين الطويل يدق أبواب القلعة العظيمة . وما زال حتّى الساعة يخطو ويتسمّر على الإسمنت اللآهب .

ماذا لو كنت هنا ؟ أحدق بعينيك فأرقى إلى الملأ الأعلى أحلم بعالم جديد سعيد، ثم نكتب معاً على الجدران قصة مجنونين ذهب بعقلهما حبّهما الإنسان ... ألثم اللفيفة بنهم معتوه كأنها شفتاك ... إنها ساعة موعدنا الصباحيّ... يكاد ينبلج النور! طاب صباحك... اقتربت الساعة الثالثة ... توقّف الزمن .

انضم « أبو رياح » إلى الرتل بعد أن قرأ في نومه — وهو الأميّ — في سجل قدره أنه قاتل محترف . خطا الرتل خطوة ثم تسمّر على الأسمنت. منذ سنين كثيرة ما عاد يأبه لها « أبو رياح » فقد باتت ذكرى طفولية بعيدة . كان ابن ستة عشر عاماً فقط . حلقوا له شعره ودخل إلى المهجع فدخّن الحشيش كي ينام جيّداً ويضاجع راقصات الملاهي . وازداد جسمه طولا وضخامة فهو أطول وأوزن وأقوى السجناء . بات سلطة عليا هنا . يأتي مباشرة بعد آخر شرطيّ دخل المكان . عينته الإدارة قائماً على الحمّام واختارت له كاتباً فتى أمرد انضم للرتل منذ عهد قريب ،

سرق سكّراً لان الشاي مرّ بلا سكّر .
قال أبو رياح : ما اسمك ؟
ـ أحمد العبدالله .
والتفت للكاتب الذي يضع إشارة صغيرة عند كل اسم يدخل الحمّام وسأل : « ماذا فعل ؟ »
ـ قاتل !
ـ عظيم !
قال لأحمد : لماذا قتلت ؟ كيف قتلت ؟
ـ كنت بائساً صغيراً . زيّن لي جوع المساء أن أقتل نفسي . كانت ضائعة ، بعيدة عني. وخفت أن أواجهها . ووجدت آخر يشبهني . كنا معاً في عصابة الحيّ نحلم بأمجاد القتلة واللصوص . كانت معي مدية لا أعلم ما أصنع بها . وأمسكنا معاً برغيف كل يشد به ناحيته فقتلته .
ـ أنت من الغواة !
ودخل أحمد إلى الحمام .
نادى الكاتب : علي الخدّام ... سارق !
ـ ماذا سرقت ؟ كيف سرقت ؟
ـ كنت بائساً صغيراً . إنه ايضاً جوع المساء . ذهبت إلى المسجد الجامع بلا حذاء . علّمني أبي كل الصلوات . وقفت بالباب فسرقت الأحذية .
ـ أنت أيضاً من الغواة .
ـ محمد الساري .
ـ إنه شبق المساء فقط ... اغتصبتها .
ـ اغتصبتها دون ان تركع عند قدميك ... غاوٍ صغير ...
وناداني الكاتب : الياس بن هولو آغا ... فحم وجدران ...
ـ ماذا فعلت ؟
ـ لا أدري ... إنه جوع المساء ... كنت بائساً كبيراً ...

الحواء الذي يهصر أعصاب الطبيعة ، العين الجاحظة التي تحدّق في اللاشيء ، النهم إلى المجهول ، التوتر المجنون : ساعة لا تعلم ما تفعل ويمسي جسدك بعضاً من الطبيعة الممتدة أمامك إلى اللانهاية ... عندما تزول أنت وتغدو ذرّة أثيرية ، تفقد حسّك نفسه وترى ما لا يراه الآخرون ... وتذوب الأشعة في ظلام منير فلا تدري أنت ، قاتل أم نبيّ .

وقف احتراماً لي وقال : هوذا محترف أصيل ...

استقبلتني في الحمام رائحة مزبلة ترش بالماء كيما تخصب الأرض . أقيمت فيه حواجز بين دوش ودوش ، فبادرني الشعور بأني في قبر جديد اختلط فيه التراب برماد الموتى فكان منه طين تدرك معه إذا شممت الهواء أنك على باب مقبرة وأن الأحياء يخدّشون بعويلهم صمت الموتى .

دخل « أبو رياح » يحثّ المستحمين على الإسراع . قلت له : « هل لك في أن تساعدني في غسل ظهري؟ » فلبّى . ومرّت الليفة على المكان الذي كانت تحكه أمي ، حيث كانت تداعب ظهري أناملك الصغيرة فارتجفت .

قال « أبو رياح » : قف ! إنك تثيرني !

التفتّ اليه . كان وجهه يحدّق بي غير، أن عينيه استدارتا وجحظتا فنظرتا إلى اليمين والأعلى . تسمّرتا على زاوية السقف كأنهما استيقظتا على صورة بعيدة تظل راقدة في لاشعوره حتى يثيره أحد ما فتنشب أظافرها وتعصف به شهوة الدم تماماً كما فعل ليلة كان في الملهى .

كان عمره ستة عشر عاماً. وأخذت ترقص جوليانا وهو قريب من حلبة الرقص . غمز لها بعينه فأجابته بإيماءة من يدها فأمسك بكأسه وازدرده دفعة واحدة. واقتربت جوليانا من طاولته فانتزعت زهرة من زهوره ووضعتها في عارضها . كأس أخرى كبيرة دفعة واحدة .

على الطاولة المجاورة كان شاب آخر . أرسل لجوليانا قبلة في الهواء فغمزت بعينها واقتربت ووضعت زهرة أخرى في العارض الآخر، فشرب جار «أبي رياح» كأساً كبيرة دفعة واحدة . قال له هذا : « إنك تثيرني ! » فضحك جاره ضحكة عالية ساخرة. وغامت عينا « أبي رياح » وكأن المكان قد اختفى جميعاً غير زاوية السقف اليمنى التي تراقصت فيها أشباح مقبرة وموتى وانطلقت من مسدسه رصاصة .

وتعلّم في السجن الفضائل جميعاً، فهام بالحشيش وخدر أعضاءه حتى العياء . يدخّن فيتراخى جسده وتذبل عيناه وهما تحدقان في زاوية السقف اليسرى، فينام على أحلام سعيدة. وتعلم كذلك إصابة الهدف بالموس .

عندما بلغ الخامسة والعشرين تشاجر السجناء والسجانون . ربّى قطاً جميلا سماه « عنتر » وعوده على استنشاق المخدّر . وضع له حزاماً في صدره، لا ينتبه له رقيب، يرسله أيام الزيارات مع أصدقائه فيملأون حزامه بالحشيش. ويعود القطّ إليه متسلقاً الجدران . عندما انتهى حكم صديقه « أبي صياح » أخذ القطّ معه ووعده أن يرسله محمّلا ، وفاء لدينه . وانتبه العريف لهذه الحيلة فتربص عودة « عنتر » كما ترقبها « أبو رياح »، حتى إذا قفز من على الجدار، صوّب العريف بندقيته اليه فجحظت عين « أبي رياح » واتجهت إلى زاوية السماء اليمنى فاكمدّت زرقتها وتقلّصت حتى غدت دائرة صغيرة فيها غيمة دخان ودم وصاح : « إنك تثيرني! » ولمعت المدية في يده. واحتشد وراءه السجناء. ووقف الشرطة وراء العريف وانطلقت رصاصة. واشتبك الجمعان. وانجلت المعركة عن رصاصة في قلب عنتر، وسكين في قلب العريف. وحكم « أبو رياح » بالسجن المؤبد .

قلت له : « شكراً ... لقد انتهيت ... »

لبست ثيابي وخرجت من الباب الثاني فالتحقت بالرتل .

مالت الشمس للغروب وأخذ النهار ينحدر من قمة جبله مكدوداً من أثقال الصباح. وفي الساحة تجمهر الذين ما حان دورهم بعد حول قادم جديد فتى . كان « أبو علي » يرقبه بعيداً قليلا عن الآخرين، يفتل شاربيه بشبق همجي . كانوا – على ما أظن – يقدّمون له رفاقه الجدد، ونور الشمس ينقلب من ذهبي إلى أحمر كأن فناناً يتلاعب باللون، يشوبه قليلا قليلا بالأحمر الداكن . ثم أخذ السواد الذي يمازجه بياض شبيه ببياض الغيوم ينسرب إلى عروقه فتذبل أغصان النور. وخطا الرتل خطوة ثم تسمّرت قدماه عند مربع حفر في سقف الطابق الذي تحتنا كي يتنفس سكان العالم السفلي . تطلعت من الشعرية : عالم آخر كهباب الفحم ، نحن ملأه الأعلى ، أصحاب الحظوة السعداء بالنسبة اليه ، طبقة أخرى من الكائنات قد تكون بشرية وقد تكون أشباحاً ، حركاتها سوداء ضبابية كأنها ولدت من ضوء ناقص الاحتراق . أنصتّ ، لم اسمع لها صوتاً ورأيتها تسير وتجلس وتشير كأنها من عالم السينما الصامتة أو كائنات متخلفة لا تقدر على النطق ... ترى لو خرجت هذه الكائنات إلى دنيا النور والبشر وتسلمت مقدرات الأرض ماذا تفعل بالعالم ؟

رأيت على نور الضوء الكهربائي الأصفر الخافت إنساناً يحمل مدية ظننته من شاربه « أبا علي » يشير إلى فتى أمرد يشبه الداخل الجديد ، كأنه يهدّده ، وذعر لا إنسانيّ يقلّص وجه الآخر وخلع الفتى بنطاله وهو يرتجف هلعاً ... لا اظنهما « أبا علي » والجديد ، فما حانت ساعة مغادرتهما الرتل .

خطا الرتل خطوة ثم تسمر . تطلعت من الشعرية الثانية : ثياب سوداء ألقيت على المراتب الحجرية والأرض، وفي جوّ المهجع تسبح ضبابة زرقاء داكنة. وتحركت الثياب فإذا هي كائنات من العالم التحتي. وانضمّت ضبابة صغيرة إلى الضبابة الكبرى .

الحشيشْ هنا غزير، يا مادونا . سعره غال فقط ، يرتفع

كلّما ازداد العدد: حقيقة العصر العجيبة، قانون العرض والطلب. وتنخفض مخصصات المسجونين : ثمانون قرشاً للفرد يخصّص من مجموعها ثمن الكهرباء والماء والمكانس والـ د. د. ت. والاصلاحات والشريط الشائك الذي يمتد. فالرتل في ازدياد.

خطا الرتل خطوة ثم تسمّر أمام باب الزنزانة الثالثة، فدخلت ونظرت إلى إصبعي. لم تكن هنا، وأنا اسمع خطو الحلقة المفرغة التي تدخل من باب وتخرج من الآخر لتدور حول الفراغ.

ماذا يقول الساعة سكان العالم التحتّي في ظلّ المدية وهباب الفحم وغيوم الحشيش، بعد أن لعلع السوط في هذا المساء الذي مدّ أجنحته المتوحّشة كما يفعل كلّ يوم عندما يحين لقاؤنا المسائي وتتفتح عيون جسدي، يا مادونا، على صلاة وثنية.

مادونا ،

يا شقائي الحبيب .

السجن يثقل عليّ يوماً بعد يوم ، ساعة بعد ساعة ، ثانية بعد ثانية . الزمن طويل يتثاءب ويتمطّى ثم يغفو فينام بلا حراك . القضبان تركع على صدري ، تمتص دمي ، تفقأ عين رؤاي ، تخلع صميمي، تدوسه بنعل السأم. كم أنا مشوق للرحيل، أي رحيل ! إلى أي مكان ، إلى لا مكان !

أدرك المحقق أخيراً أن قضيّتي بسيطة لا تستأهل منه عناء كبيراً . أخذ يفكر بطريقة يخرجني فيها من السجن . اقتنع أني لم أقترف ذنباً، غير أنه حائر لماذا دخلت وقد بدأ تحقيقاً جديداً كي يعرف سبب دخولي . إنه يحاكم الأمور بطريقة عفوية وبسيطة ، وعلمية . المقدمات تفرض فيها النتائج حسب قانون السببيّة : دخلت السجن ، إذن أنا مجرم ...

سألني : « ما هي جريمتك ؟ » قلت : « لا أدري ! »

استدعاني مرات ثلاثاً وألقى السؤال نفسه، فأعدت جوابي مرات ثلاثاً . وقلّب في كل مرة سجلاّت التحقيق فلم يعثر حتى على اسمي ، فذهب إلى رؤسائه يطرق أبوابهم لعلّه يفهم. ويتكرر المشهد : يدخل اليهم ، يحيّي على بعد ست خطوات ويسأل : « ماذا فعل الياس ؟ »

ـ ذلك شأنك أنت ... أنت الذي يجب أن يعرف .

ـ لم أجد اسمه في السجل .

ـ ابحث جيداً .

ويحيّي مرة أخرى ويدور على عقبيه ككل الجنود الذين احترفوا القضاء .

وأخيراً عمد إلى طريقة ابتدعها في الاستجواب جديدة حتى على رئيسه المهندس .

ــ ماذا تفعل إذا جاء المساء ؟

ــ أحدّق بالأوثان، أنا ومادونا .

ــ لماذا ؟

ــ نبحث عن نبيٍّ للعصر . عن أم حقيقية ... نكتب قصة جديدة تبعث دفء الحياة في الوثن ...

ــ تزعم أن العصر بلا نبيٍّ ؟

ــ نبيّه بغيٌّ !

ــ هات الدليل ...

ــ أجساد كأنها معلّقة على مشجب ... الهباب والحشيش .

ــ لا بدّ للاحياء من عالم سفلي ...

ــ خلق الله العالم على صورته ومثاله، وبنت الأمم السجون على صورتها ومثالها .

ــ ألهذا تحدق بالأوثان ؟

ــ أبحث عن صورة للانسان .

ــ أي انسان ؟

ــ إنسان لا يولد في زنزانة ولا يتعفّن في كهف تحتيّ ، لا يداهمه حول الزاوية اليمنى ، لا يهدد بمدية ، لا يخلع بنطاله ...

ــ أهذا هو الإنسان الذي تبحث عنه ؟

ــ نعم، إنه بسيط وادع ، يأكل إذا جاع ، يغني ويلعب، لا يسرق أبداً ، يحبّ ... يحبّ كثيراً ، لا يكره إلا الموت ، ولكنه يموت من أجل الحرية .

ــ قضيتك إذن بسيطة ...

ــ بسيطة جداً .

وحكّ رأسه وفكّر ثم أعادني .

على طريق الزنزانة رأيت في الظلام شبحاً يرفع يديه إلى

أعلى كأنه يتعلّق بوهم يقف على قدم واحدة والماء ينزل على رأسه قطرة قطرة دون انقطاع . اقتربت قليلا . أظنه رفيق دراستي محمود . لماذا على قدم واحدة ؟

كان محمود يضحك كثيراً ، يحب لعب الدحل وأكل السكر ونظم الشعر . كانت قصائده قصيرة لانه ملول يقرأ نشيد الأناشيد ويكثر من النظر يميناً وشمالا فيعاقبه المعلمون . التفت عندما مررت : نعم إنه محمود .... كنا نجلس الى طاولة واحدة ، نكره الدرس معاً ، نختنق من غبار الحوارة ، ننتظر الجرس بفارغ الصبر .

– قلت لك إلى الجدار ، لا تلتفت ... قالها الحارس نزقاً وهوى بالسوط ، فسقط محمود أرضاً ، ثم قام سريعاً وعلق يديه مرة أخرى بالوهم. ورفع رجلا ، وعاودت قطرات الماء سقوطها الرتيب على رأسه .

لماذا وضعت في الزنزانة الثالثة ؟ إنها للمحكومين بالاعدام ... البارحة أخرج جاري في الساعة الثالثة . سمعت طلقة خرساء كأنها ارتطمت بجسد حيّ .

جاء بي المحقق مرة أخرى :

– من هي مادونا ؟

– شراع أتت به ريح مترعة بالأسرار .

– في أي مرفأ التقيت بها ؟

– أنا مرفأها الوحيد .

– من هي مادونا ؟

– ثرثرة الحياة في أعماقي .

– لماذا استجبت لها ؟

– وقفت حياتي عليها ؛ سئمت الانتظار الطويل فجاءتني من المجهول الذي يرعى حياة العشاق بعين فنّان .

– هل تزوجتها ؟

ـ موعدنا غداً ... عندما يكمل الجنين شهوراً تسعة في بطن امه .

ثم أعادني . خلت أنه يريد أن يرسلني اليك يا مادونا .

وجاء بي أيضاً :

ـ أريد الحقيقة ، كل الحقيقة ...

ـ ماتت الحقيقة ، كل الحقيقة، لأنها ما ولدت بعد ...

ـ يجب أن أعرف لم أنت هنا ...

ـ كي تولد الحقيقة ...

ـ من جاء بك إلى هنا ؟

ـ الذين يجهلون لماذا يسجنون ...

ـ لا يختلف المحقق عن الذين انطرحوا أرضاً كثياب مهترئة : من نفس الطينة ، ينتمي إلى نفس المرحلة التاريخية ، بائس الوجه ، معذّب الأعماق ، حائر تقلقه الهموم . بسيط التقاطيع ، مسكين حتى البكاء ، لولا انه مغرور كطاووس يلبس الخاكي ، تملي عليه بزّته ، مشيته ونمط تفكيره .

قال : يجب أن أصنّفك في إحدى القوائم ...

ونظر في سجله : الذين قتلوا ... لست منهم ، الذين سرقوا .. . لست منهم ، الذين زنوا ... وهز رأسه أن لا ، الذين لاطوا ـ الحشاشون ... أيضاً لا ... هنالك الذين دخلوا ولا يعرف أحد لماذا ... لست منهم تماماً فهؤلاء قد يخرجون ... الذين دخلوا ونجهل لماذا ونريد أن نخرجهم ولا نعرف كيف ... قد تكون من هؤلاء ولكنها قائمة طويلة، وقد لا نهتدي إليك بعد ، إذا وضعت بينهم ... لا بدّ من قائمة جديدة تبدأ بواحد ...

ـ وتنتهي بثلاثة .

ـ من قال إنها تنتهي. فالرتل يخطو ثم يتسمّر ، يدور في الفراغ ، يزداد مع الزمن قطر دائرته المفرغة ... لم أختر لك أن تكون منه، ولكني وجدتك هناك . قد يكون أبو رياح ،

قد تكون سلطة أخرى ... فهمت إنه الطرح .

ـ ولكني أب ، أب حقيقيّ .

ـ بلا ولد ... لماذا جئت بلا تاج ؟

ـ كنت أضفره ...

ـ يدك بطيئة ... سنصنعه لك ... قضيتك بسيطة يحلّها الزمن .

ما أثمن الثانية من أيامنا ، يا مادونا، عندما تفر حياتنا سريعة كأنها تركب صهوة العاصفة فيتوقف الزمن. ونمر نحن سراعاً كومضة برق . يأتي النهار ثم يزول وننتظر أن يأتينا العدم بما لا نعلم والعدم في فنّ المعادلات أقلّ من صفر .

أتذكرين لما حلمت بالتاج ؟ كانوا هناك ، إذن ، يطاردون أحلامي ، يحصون ذرّات تيار حياتي ، يتنصتون على همس الصورة في لا وعيي .

إن أحداً لا يعلم لم أنا هنا . ذوو النية الحسنة جميعاً يبحثون عن سبيل للافراج عني ولا يجدون لذلك مبرّراً كافياً، فلا بدّ أن يعلموا سبب دخولي .

أنا الوحيد الذي يعرفه ، لا أجرؤ على قوله إلا لك : كنت أحوك في صمتي الفجر ، أعد دروب الشمس في أرض لا يمكن أن تبزغ فيها الشمس .

مادونا ، يا صديقتي ، سأبوح لك بسري الصغير . بتّ عاشقاً من جديد . يا للعجب، لا أستطيع أن أعيش بلا حب ! لا تغاري . إنه حبي العتيق الذي يتعلّق بموجات نظري وخفقات قلبي كطفل طائش . منذ ما دخلت السجن أسمع أصواتاً خفية شبيهة بوقع صوتك وانت غافية . كلمات مبعثرة لا معنى لها ... قولي لي : هل تكلمينني أحياناً ؟ أأنت النداء الخفي ؟ أم هو الجنون ؟

ما عدت من عرفت . أرى خيالات في غسق الظلام .
أحلم بغابات ، وقصور ،وأوثان ، وتيجان، ومدى،وغول يقبع على صدر أحلامي .

عندما يطرق نصف الليل باب وحشتي استيقظ ، أجلس على المرتبة الحجرية ، أسير في الزنزانة،ألوب بحثاً عن الصوت : أنصت له يأتيني أحياناً واضحاً ، أناديه فيجيء الحارس وينظر إلي مشفقاً :

ـ هل تتألم من شيء ؟
ـ نعم !
ـ مم ؟
ـ لا أدري !
ـ أفضل لك أن تنام !

وانصاع لنصحه . عندما نفقد قدرتنا على اتخاذ قرار نستسلم استسلاماً أبله لأول أمر .

أخذت أجمع الكلمات المتفرقة يوماً بعد يوم حتى أصبحت جملة : « إجمع خيوط النور توْتَ الحرية ! » إنه الجنون ! من ذا يجمع خيوط الشمس؟ إنها تفر من بين الأصابع كوهم . لماذا كل هذا الظلم ؟ تريدين مني أن انسج المستحيل ؟ دلال المرأة ! أنت عالمة أني لن أقول لك لا . ومن أين لي النور ؟ ذرّاته لا تصلني إلا عبر بحار من الظلمات الداكنة ، نادرة غامضة كابتسامة سجين . والمشكلة الكبرى أن أقبض عليها وأن أضمّ بعضها إلى بعض ، فأجعل منها سدوة مشعّة .

جاء بي المحقّق . كان الصراخ ينبعث من غرفة مجاورة شبيهاً بالعواء . قال : « إنك تثقل على وجداني . ألا ترى ؟ أنظر . لا أريد لك هذا المصير ...

نظرت من نافذة غرفته : إطار عجلة سيارة فيه إنسان لفّ

يديه حوله وخرج رأسه ورجلاه . وجلادان يضربان بلا وعي قدميه ... وفي الناحية الأخرى يمرّ الكاوي الكهربائي على جسد إنسان آخر . بدأ بالقدم وأخذ ينتقل شيئاً فشيئاً على الساق فتنبعث رائحة شواء .

غامت عيناي . ودار العالم . ودارت معه العجلة .

وأتمّ المحقق : « بتّ عبئاً يقلقني . فكّرت بطريقة لإخراجك من السجن . اخترع لنفسك جريمة عقوبتها صغيرة ، جريمة من أي نوع ، واعترف بها . وعندئذ تحال للقضاء ويصبح الأمر سهلاً . »

— من أين الجريمة ؟

— تصوّر أنك إنسان آخر قام بعمل ما ؛ سرقة صغيرة ، حادثة قتل بسيطة عن غير عمد . ألم تقرأ رواية بوليسية ؟ ألّف رواية من هذا النوع ... ألم تسمع بمجرم ما ، إعتبر أنك هو ... الأمر في غاية البساطة . خذ ورقاً وقلماً واكتب . توسّع كثيراً . إعترف أنك المجرم . توسع . توسع كثيراً فالمهم أن يكون الاعتراف طويلا . ليكن اعترافك دفاعاً إذا شئت . لا تهتم بالكلمات . استعمل المرادفات . بالغ بالوصف فالسادة الرؤساء يهتمون بالبلاغة ، يتعلمون قواعد اللغة والسلوك من التقارير ولا تنس أنهم يفضلون قضاء الوقت بالقراءة بدلا من قضم أظافرهم .

— الظلمة شديدة في الزنزانة . كيف أكتب وأنا لا أرى ؟

— أكتب عند نصف الليل .

— أغسل ثيابي آنئذ كي تظل طاهرة .

فحدّق بثيابي وقال : « ولكنها سوداء ! »

— ماء السجن اسود ...

— ألم يبيضّ بين يديك ؟

— ما زال الليل في أوّله ...

— أسمح لك بأن ترسلها إلى جناح النساء ...

ـ إنها ساعة أكلهن وحملهن .
ـ إنتظر الساعة الثالثة ... آنئذ يملأ النور العالم !
ـ من يدري ما تجيء به تلك الساعة ! ... قد يتحطّم السوط فيتهدم العالم الذي نعيش فيه وتولد ذرّية أخرى ...
عدت للزنزانة فوجدت القط الأشهب الصغير مريضاً . التقطت خيطاً من النور وخبأته لك .

ألا تحبين قصص السجن ؟ إنها شيقة مثيرة ، تبدو فيها لمسات الحياة على طريقة أخرى كثيفة مركزة نهمة كأنها مسمار نطرقه في عظم حيّ ينغرز شيئاً فشيئاً فنتوقف ونحدق بالعظم والدم والألم ، ثم نطرق ، ثم نحدّق بالألم ويزداد الطرق توتراً وعنفاً فتصطك أسناننا ثم نشدّ ونضرب بقسوة حتّى يصل المسمار للمخّ فتشلّ الأعضاء ويهيمن الدوار على القاتل والضحية ويمسي العالم غير عالمكم ، ثم نستسلم إلى نشوة خدر النسيان .
حناننا آخر . نحب الأشياء بصمت واهن ذاهل ، الأشياء الصغيرة التي تأتينا من عالم الأحياء : كلمة عابرة ، هدية تافهة ، لفيفة من الدخان ، أوقية قهوة ، كتاب نقرأه ونعيده حتى تبلى كلماته في أذهاننا ، صحيفة لا يهتم بها القراء العاديون ، اسفنجة لغسل الزنزانة ، خرقة لف بها بعض طعام نأكله ببطء ، نضع اللقمة في فمنا تقضمها اسناننا وتزدردها أمعاؤنا بخفر فتاة خجول . ثم ننقلب إلى الخرقة فنتأملها ، نضعها على وجوهنا وشفاهنا . نشمّها كجسد حبيب . الصورة التي تشبه أحد أحبائنا نلصقها بلباب الخبز في الأمكنة التي لا يلوّثها البق ، نسمر معها في ساعات الأرق البليدة ، وردة ذابلة نبلّلها بالماء ، تحرسها عواطفنا ، نخترع وسائل جديدة لادامتها ، نطيل حياتها بألف وسيلة ... زهرة الياسمين ، زهرتك في جيبي لا اجرؤ أن امد لها يدي كي لا تتفتت ، أمدّ أنفي من فتحة الجيب فأشمها صباح مساء حتى

لقد اكتشفت الواناً جديدة لرائحة الياسمين : في الأيام الأولى ظلّت ياسمينية الأرج ، ثم رائحة رسالة بُللت بالياسمين جاءت من بلاد بعيدة . والآن تفوح منها رائحة هشيم وحصاد مسائية ، رائحة عنقك بعد أن تخلعي طوق الياسمين .

نسمّي الأشياء هنا بأسماء غريبة عنكم تفوح منها رائحة السجن ، ظلمته وبؤسه . كان اسم القط الأشهب « حزين » . كان يأتي أحياناً إلى زنزانتي فأعرف أن صاحبه قد ذهب للتحقيق فأداعبه متوتر الأعصاب حتّى يعود ذاك ، فيرجع اليه ليلحس جراحه . وأخذت إقامته تطول عندي شيئاً فشيئاً . كنت انتظره . أعلم أنه في الدهليز من نداء المسجونين : « حزين ! » كي يلاعبوه ويطعموه أفضل ما عندهم . ذات يوم طال مكوثه لديّ . سمعت شهقة بكاء من احدى الزنزانات تمتزج بنداء : « حزين » . كان يخرج بين حين وآخر يشمّ رائحة صاحبه الذي لم يعد ويرجع فيقعي في الزاوية ... وكلما مرّ ازداد الشهيق ... البارحة كان الدم يسيل من خاصرته . ناداه جار صاحبه وداعبه فتوتر وشد عليه فماء القط وخمشه فداعبه وشد ، شد حتّى استل المدية ومزّق خاصرته كما يقطع الفلاح الوردة التي غرسها ابنه الميت . عاد إلى الزاوية يجر نفسه ودمه فأقعى يعطس ويرفع شفته العليا كي يتنفس . وضعت يدي على رقبته . داعبت صوفه الطويل فعطس ونام كطفل صغير فقبلته ورميته من بين القضبان في الدهليز كخرقة .

عادت بي الذاكرة إلى اليوم الذي بقي فيه «حزين» في زنزانتي . كأنني أرى صاحبه في ثيابه البيضاء .

هل حدثتك عن صديقي الذي حكم بالاعدام خطأ ؟ سمح له بأن يحلق ذقنه رغم ان القتلة كانوا على عجلة من أمرهم . لبس ثيابه وتأنق . لم ينس حتّى ربطة العنق . وودعنا فقبّلنا . كان لمس وجنته حريرياً كأنما أنبت فيها الخوف الصامت الجامد زغباً يمرع

على نداء القبر . ثرثر كثيراً ثم خرج مع الشيخ وقاتليه فألبسوه الثياب البيضاء فوق بزّته وقرأوا له الحكم وشدّوه إلى الخشبة، ووضعت العصابة رغماً عنه على عينيه ... وبُلّغ وهو على شاطىء الأبدية أنّه لم يكن المعني بالحكم . قال لي بعدئذ أنه لا يذكر من كل تلك الطقوس إلا صوت خفق نعليه .

كأني بجار زنزانتي ينصت إلى وقع خطواته وهو سائر إلى ساحة الموت تدق الأرض كناقوس جنائزي . كأني به يسمع ذلك الوقع بعد أن استقرت الرصاصة في قلبه . ألا تعلمين أن الموتى يظلون أحياء قليلا ، قليلا جداً بعد القتل .

كأني بالحبال التي شدته إلى خشبته تتراخى ويتهدّل الجسد فيقذف موجة من الدم . ألا تعلمين أن الحبال تتراخى عندما تسقط الضحية ؟ ذلك أن الجسم يتقلص .

أحسست بارتعاش في الركبتين فجلست على المرتبة ألم لك خيطاً آخر من نور .

عادت ثيابي من جناح النساء نظيفة نصف ممزقة . كانت كل منهن تريد أن تشمّ رائحة الرجل فتنازعنها . ووجدت في الجيوب رسائل غرام :

« عندما تخرج من السجن انتظرني أكن لك أفضل زوجة . عهري أن أبي باعني . كان إخوتي جياعاً . كنت خبزهم . لقد كبروا ... »

سلمى

«كنت خادمة فسرقت السيد البخيل. لا تنس أني بانتظارك».

زينب

«أنا أعلم أنك تبحث عن بغيّ لأنك لست أباً بعد. أنا عاهرة كالأرض التي لم تنبت أماً حقيقية ... »

منى

وقف قاتل زوجته أمام قضبان زنزانتي :
قال : أرسلني إلى قريتي . ألست الذي تبشر بعودة الانسان ؟
– أبشر بميلاده ...
– ألست الذي زعم انه يولد عندما يجد نفسه في مواطىء أقدام الطفولة ...؟
– بل أنا الذي بشره بطفولة لا تهرم ... من أية قرية أنت ؟
فتطلّع إلي بعين باهتة وكأنه يبحث عن اسمها ثم حنى رأسه وذرف دمعة مسحها بكم سترته .
لا يعلم شيئاً عن نفسه ولا أهله . لا اسم له ولا ماضٍ . كان جندياً زنت زوجته فقتلها وانطفأ فيه كل شيء ... يقف على أبواب الزنزانات منذ سنين يرجو السجناء أن يعيدوه إلى القرية التي ضاع اسمها وما زالت في مكانها . وزيّن لي الحدس أنها «عين ماهل» .

أدور كالدوامة في زنزانتي يا مادونا ... أبحث عن يدي كي أراها ... قطع الماء عن السجن ... دقت الساعة الثانية والنصف ... رائحة كريهة تنبعث من كل مكان ... عدت فجلست على المرتبة ... أسمع وقع خطى في الدهليز... وقفت ... أريد أن أغسل وجهي ... ركبتاي ترتجفان ... الرائحة تشتد ... اقتربت الخطى... لا ماء ... إنه الخوف ... كيف أحلق ذقني ؟ ... السجن يضج من الرائحة ... إنّه الرعب ... يقطعون الماء كل اسبوع يوماً لاصلاح الأنابيب ... اسمع صوت نعليّ قبل أن يفتح الباب ... وضعت أنفي على جبيي : إنها رائحة هشيم وحصاد مسائية وعوسجة ياسمين ... وجدت لك خيطاً آخر من النور ... دقّت الساعة الثالثة ... الأبد يفتح ذراعيه ... خيوط النور كثيرة بين يديّ ، والحياة أمامي ...

دفاع صديقي الياس

أنا متهم منذ ما شاءني الله مضغة فعلقة فخلق فسوّى .

أنا متهم منذ ما كنت فكرة في ذهن الله، ألقاني ملأه الأعلى على قارعة طريق طويلة ما اخترتها ولكني وجدت نفسي أسير فتبعتها لأني لا أعرف لي طريقاً أخرى . لم أتساءل ، بل لم يكن لدي الحق في أن أتساءل إلى أين تقودني، أغمضت عينيّ أم فتحتهما. أردت فقط أن أجعل الطريق مجدية : تلك هي انسانيّتي !

لا أنكر عليك يا سيادة المحقّق أني غافلت قدري أحياناً عديدة فغرست بعض الأشجار كي يستظل بها القادمون بعدي . وكنت في عجلة من أمري، يستحثني ، هذا القدر فلم أنتظر الظلال ولا الثمار . ظللت أمعن بالزرع لأني وجدت الطريق خالية . قد تقول لي إنها ما زالت قفراً على عهدي بها ، وأنا لا آسي أو آسف لذاك . فقد كنت ألهو بالتراب والبذور والشمس وأنسج من خيوط النور حلماً بالظل والثمر . قد لا أكون جاداً كل الجد حينما نويت أن أبدّل معالم الطبيعة ، ولكن ماذا يفعل الوحيد إذا وجد العالم خالياً من الألوان ، وشغف بالفجر والغسق وحنّ إلى أن يكون العالم جميلا ؟

أنا متهم منذ ما كنت فكرة حبّ في ذهن الله . أرادني عاشقاً فهمت وجداً بزرقة السماء والبحر . فتنني قوس قزح ، حلمت انه قريب على بعد خطوات مني ، فنهدت إليه ولولا أنه سراب لكان شجرة تظلّل وتثمر .

شكراً لك سيادة المحقق ، انك أعطيتني ورقاً وقلماً . أنا أعلم أنّ اللعبة التي نقوم بها معاً خطرة ولكنها مثيرة مضحكة كأنها لعبة أطفال القرية والعقرب . يخرج هذا من وجره لسبب ما، لا

أعرفه أنا ولا تعرفهأنت . يعرفه هو فقط ،فيصنع الأطفال دائرة من هشيم حوله فيجهد في أن يجد طريقاً له. وتلفحه النار من كل الاتجاهات فيعود إلى المركز ويلدغ نفسه فيبلغ الأطفال آنئذ ذروة مرحهم . أعطيتني الورق وطلبت مني أن أنسج لي جريمة . إن الحيلة بارعة، وأشهد أنك لو لم تكن محققاً لكنت طبيباً نفسيّاً ماهراً . لقد شخّصت دائي وأعطيتني الوسيلة التي تفضح كل أسراري . عندما تلامس أناملي الورق يعصف بي جنون الكلمة فتزدحم الأفكار كأفاع تلسعني ، وتحس الكلمات بحنان أصابعي فتأتيني من دنياي الخفيّة تحدب عليّ كما أحدب عليها فأفرغ قرارة نفسي وظلمتها حتى أمتلىء نوراً ويمتلىء مني الورق .

أنا لا أشك بارادتك الطيبة ، ولكن المسألة لا تتعلق بك أو بي . إنها قضية عضوية في بناء المجتمع لا بد لكل منا أن يقوم بدوره . واسمح لي أن أبسّط لك منطق الأشياء الذي لا علاقة لنا به نحن الاثنين بمعادلة :

لا إثم إذن لا تحقيق ... تحقيق إذن إثم ...

منطقك يقول : لا بدّ من إثم وآثمين وإلا فلم أنا موجود ؟

نتيجة المعادلة : محقّق إذن إثم، وآثمون متى وجد أحدهما وجد الآخر . فإذا لم يوجد الاثم تخيلته ورددته على مسمع نفسك حتى يكتسي عظم الواقع وجلده فتعيش فيه ومن أجله. وشاءت الظروف أن توجد أنت فكان لا بدّ من وجودي أنا . كلانا مبرّر الآخر . تلك هي الحتمية التاريخية .

تكاثرت الآلة في البلدان المتقدمة وتنوعت حتى غدت أزمة العصر. تعددها يبتلع أعصاب الانسان لأنهما في سباق . فوراء العدد تكمن حقيقة كبرى هي الصراع بين الانسان الذي يؤكد ذاته بأفكار جديدة والمعمل الذي يقذف بكائناته : هذا يبدع وذاك يتكاثر . يطاردان الزمن . كلاهما يريد أن يسيطر عليه حتى يسود الآخر .

أما في البلدان المتخلفة فهنالك آلة وحيدة تهوّم في الفراغ . كل منا يستسلم فيها للمكان ، لأن الزمن لا يتحرّك .

شاءت قوى غير منظورة أن تكون محقّقاً ، فكنت في المكان المقابل لي . ولو شاءت لك أن تمسك بالسوط لفعلت وضربت دون وعي منك . ولو لم تكن مسلوب الارادة لفضّلت مكاناً تجد فيه نفسك . ومن يدري فقد يكون الزنزانة الثالثة .

أما الذين انفصلوا عن المذنبين والمحققين فهم أكثر المجرمين إثماً لأنهم خالفوا نواميس الطبيعة . فقد وعوا الأزمة فباتوا خطراً لأنهم يلغون التحقيق . وتتوقف الآلة .

لا بد لي اذن من جريمة تغسل عنّي عار السلوك المتميز . ولنختر أبسط الكلمات . حاولت أن أجد كلمات كبيرة ذات وقع ورنين تلهب المشاعر وتحرك العواطف ثم عزفت عنها لأني مللت الفراغ . مهمتك تملي عليك ألا تفكر كثيراً كي تلعب دورك جيّداً . والممثل الماهر يحبّ مهنته بالقدر الذي يحبّ فيه المخرج ، يفعل ما يأمره به حتّى تصفق الأكف مؤذنة بنجاح المسرحية . أنا أعلم أنّ مهمتك كممثل حبتك بفن الإلقاء وعودتك على ما يثير الجمهور . وعندما طلبت مني اعترافاً صرت مستمعي الوحيد ، فكان من الذكاء أن أستغل أمانتك لحرفتك ، وأعرف أيضاً أنك لا تخلو من العواطف التي ما سيطر عليها المخرج بعد ، فما زلت في بداية مهنتك . وقد تكون محاكمتي فرصتك الوحيدة التي تصبح فيها بطل المسرحية الأول . إني أتألم من أجلك ، فالمسرحية من نوع جديد ، فيها بطلان لا واحد ، دورهما قيس بمسطرة واحدة ، أحدهما العلّة والآخر النتيجة الحتمية .

أذكرك بحادثة أظنها مجدية لسلامة التحقيق : عندما جمع المخرج ممثليه للمرة الأولى لم تكن المسرحية جاهزة ، وكان يعوزه الزمن كي يفكر جيداً ، فاستخدم الكلمات الكبيرة محل الأفكار . وصعدتم على الخشبة وكان القاوكم حسناً ، ولا أنكر أن الجمهور

صفق طويلا ، فقد انتُقي المستمعون كي يصفقوا . لا أنكر عليك أيضاً أنهم مثلوا دورهم كما ينبغي. فقد كان الإخراج مختلفاً عما عهدنا . النظارة يمثلون كما يفعل الذين على المسرح . كنت آنئذ حاضراً أشاهد من زاويتي وأتأمل . أردت أن أمثل دوري بكل أمانة ، غير أن صوتي كان نشازاً ضاع بين الإلقاء والتصفيق. ولهذا أضع نفسي رهن إشارتك .

لو اخترت « الكلمات الكبيرة » لطربت. فأنت حسّاس تهزك البلاغة، وقد تعوّدت عليها أوتار قلبك فما تهتز بحكم العادة على غيرها. غير أني نسيت جزءاً من المعجم في أحد بيوت الدعارة ولم أخبر الشرطة حرصاً على سمعتي . وأجهل لمن باعته البغايا. وقد علمت فيما بعد أن الثمن كان رخيصاً . وما كان مصدر خوفي أني ضاجعت بغياً ، وإنما لأني كنت أتأبط ما لا أؤمن به .

ولنكتشف الآن جريمتي . لنخترعها إذا لم نعثر عليها . لنبدعها ، لنبنها حجراً على حجر. ولنبدأ من البدء . عندما خرجت من السجن الأول كنت بلا حب ولا حقد ، لأني فقدت أمي الحقيقية فعشت بحب مستعار . وجدت العالم مزيّفاً ، نفيت الحقيقة . وأشرعت أميّ الثانية فراشها على قارعة الطريق فأكلتُ ولبست وتعلمت . هل لبست أنت ثوباً جاءتك به بغي . في نصف الليل تحدق في السقف تعد الهوام التي تلتصق به وتقارن بين أم حقيقية وأم من أنبياء العصر . يقضم قميصك جسدك ، يشحذ أعصابك بنهم مخيف إلى ما لا تدرك يدفعك ، للجريمة ولأن تقتل نفسك .

أنت لم تعرف أمي الحقيقية كي تفهم أبعاد أزمتي . لم تولد بعد . إنها تنتظر بزوغ الشمس . سنّ لي المصير دروب الحقد ، أترعها بالسرر الزانية ... ونازعني حنان أمي الثانية، فهي أم على كل حال... ألم تر في ساعة من ساعات القلق أن الحبّ والحقد من طينة واحدة ؟ إنسانيّان ... وانك لا تستطيع أن تكره إذا أحببت لحظة واحدة ... ألا تعرف أمي الثانية ؟ إنها كل الأمهات اللائي تلتقي بهنّ في

غدوك ورواحك ... إنها المرحلة التاريخية . عندما أمر بالطريق يجاذبني نهم عميق إلى أن أقبّل كل الأمهات ...

أنا أحببت . عشت لحظتي في صلاة مع مادونا عندما ألمّ بنا الشوق إلى البحر ، فرحلنا إليه على جناح وثن يبشر بحياة جديدة .

كأني بك تقول اكتشفت الجريمة : كافر يعبد وثناً : نحن جميعاً وثنيون لا نختلف إلا باختيار أوثاننا . وثني يسلك طريق الفناء في اللحظة التي يولد . سنّ شريعة العدم الحيّ لمن يوقظ فيهم الحب وجداً يحن إلى عناق العالم والذوب فيه كذرّات أثيرية . إكتنه سر الحياة ، خلّف وراءه الطين ، أبدعته يد متحضرة تجاوزت الآلة واستلهمت الآفاق البعيدة ، تؤمن بأن الفكرة التي لا تصبح لوناً أو لحناً تنبع من وثن من طين . أنا وأنت وثنيان . وثني هو أنا وصنعك وثنك .

تدعي أنت أنك ابن الخوري سمعان وأنت موقن أنه مات بلا ولد . رفضته أمي الأرض لأنه بشر بالشمس وما زال الليل في أوله . مرّ بحياتكم ظلا مسائياً . لم يترك أثراً وراءه ككل الظلال . عندما شاخت أمي أعانها كي ترسل لي ما ييسّر اقامتي في اوروبا حتى أنتهي من دراستي . يتتبّع معها أخباري ، وكم كان سعيداً عندما عشقت مادونا . دفعني للزواج كي تبزغ الشمس وتولد أمي الحقيقية ، فالحضارة زواج وابناء . غير أنك شددت بلا وعي منك بالآلة إلى الوراء . ولو لم تفعل لخالفت سنّة التطور .

ظننت أنك أنت الذي وضعتني في الزنزانة وخلتُ أنني جئت اليك باختياري وكلانا ظاهرة على سطح يكنّ في أعماقه زرقة البحر والسماء ، اللون واللحن والشمس وكل الأشياء الجميلة التي بشر بها الخوري سمعان وآمنت بها كأني أراها .

أراد أن ينتزع السطح كلّه ، أن يذروه عبر حدود الموت فينقشع الليل عن الجمال . ما كان يمكن ان تمسوا لو لم تقبضوا عليه في منتصف الطريق ؟ عندما تقذف الريح كل رمالها تفنى

ذرّات النور في قلب العاصفة . لقد كان من عالم لا وجود له وأسأل نفسي هل مثل هذا العالم ممكن ؟ ظننتم غروراً أنكم تبنون مملكته فأقمتم ما يشبه ديره إلى حدّ بعيد. غير أن غاشية الرقص والحبال جعلت منه سجناً . وهكذا اختتم شريعته. ولا تنسوا أن الغرور طريق الخيانة . فرحت أيديكم بما بنت فزرعتم في رأسه المهاميز .

ترى، أكان بوسعه أن ينهي مطافه ؟ كانت أحزان المدينة الشقراء تعقد قدميه ولهذا سار بلا قدمين ، صلّى بلا صدى . لماذا تعلّق بالأعماق ؟ أسرّ لي انه مجنون. فقد كان متحضراً نادى بعري الروح . ما لنا وله . نحن نتحدث عن العالم وهو لم يكن من هذا العالم . موته يعني أنه لم يولد . لم يبق منه غير أسطورة يرويها الأفاقون .

أعترف لك أني مذنب. ألا يكفي ذلك كي تحكم علي؟ فأنا أعفيك من عناء التفكير بجريمة. أنت تريد أن يرتاح وجدانك . هذا العذاب بقية من ماض ما عاد حقاً لك ولا ملكك . يجب أن أن تنفصل عنه بلا حزن ، أن تسلّه من نفسك كما تسلّ الشعرة من العجين. وأنا أعطيك الفرصة الذهبية. فمحاكمتنا هذه لا تدع لأحد منا قدرة الرجوع إلى الوراء . يكفي أن يقول فيها المتهم أنّه مذنب حتى ينطلق القاضي بحكمه ويزول أحد الممثلين عن المسرح . ألا تريد أن تصبح وحيداً . أنا أمنحك الوحدة . ولا تخشى بأساً على الآلة فستعمل بعدي وبعدك . وجودي ضرورة لبقائك ، أما الآلة ففي غنى عنا نحن الاثنين .

لا بد لكل جريمة من عنصرين حتى تكتمل ، من عدوين : القاتل والقتيل . أنا أحبّ، إذن أنا عدو الذين لا يحبّون . لا أحقد عليهم ، أحبهم ، لست منهم ، أنا في الطرف الآخر وهم أعداء من ليس معهم. وهكذا ترى أيها المحقق كيف جعلت مني عدوّاً رغماً عن إرادتي فأخذت حذرك مني . غدوت خطراً على سلطتك

وهي – ولا أنكر عليك – جريمة خطيرة. ولهذا جئت إليك كي يزول بيننا العداء .

لا أنت تريد لي ولا أنا أتعلّق في أن أعيش . رغبتنا مشتركة . حياتي كانت من أجلك وما عدت أقدر أن أفيدك وقد حان موعد رحيلي عنك .

جئت اليك والمدينة صامتة ، سكانها موتى بلا قبور ...على رؤوس أصابعي كي لا أخدش رائحة الموت ، فحمل الموتى معاولهم وشقوا لي قبري ، فألمّ بعيني نعاس الأكفان ومتّ معهم واستسلمت للذات الفناء . دعني أضاجع الأرض ، أريد أن أكون أباً .

وجدت المدينة تقيء اهلها ، أنكرت تبدّل ملامحهم فما تعرف منهم أحداً ... رفعوا رايات بيضاً ودفعتهم يد خفيّة إلى سوق النخاسة . وددت لو أني ملكت ذهب العالم كي اشتري لهم حريتهم ، فيمّمت شطرك لأني فقير بائس والفقراء تختلف أساليبهم عن سواهم في دفع الثمن . ألا ترى أني أدفعه جيّداً ؟

كان منظرهم عجيباً وهم يسيرون وقد أغمضوا أعينهم كي ينضموا إلى رتل الجائعين .

عندما غبت عنكم ظننت أنكم أعددتم بزوغ الشمس فجئت أشهد أوّل أنوارها . لقد بدّلتم الليل بليل آخر أظلم وأبأس .

ظننت أن المسرح الكبير أمسى ملتقى أعراس وفرح ، فوجدته على حاله لولا أن دنان الخمر نضبت وأخذ الراقصون على الحبال يمتاحون من دم العبيد لأنهم ما سكروا بعد ، فأخلفت موعدي مع مادونا .

كان علي أن أصبح قاضياً مثلك ، محققاً ذا حلّة جميلة وسوط وكبرياء ، أو عبداً بلا كبر ولا خيلاء ، واهن الخطا يرسف بأغلاله ، يقف وراء القضبان ، يرجو حرارة الشمس ويداعب

القطط الميتة . واختارت لي اشواق الفنان مكاني . شدّني الحب إلى رتل العبيد لأني رفضت فقط أن يكون زواجي زانياً .

لما عدت إلى مدينتي الشقراء وقفت على بابها . لم يرحب بي كعهدي ، به أيام نلتقي فنذوب في عناق طويل وأقطف من على صدغه الأشهب الحنون طاقة ياسمين أضفرها لعنق مادونا . أسندت رأسي على قلبه وتنصّت لعله يبوح لي بسرّه . كف القلب عن الخفقان وسمعت رغم ضجيج الحبال والراقصين أنيناً عميقاً خفياً يتلوى في يد النخاس فأعطيته أذني ... بعني أيها المحقق ! عيناي ترفضان رؤية الدم والعبيد . إنها الطريقة الوحيدة التي لا أفرّ بها من مصيري .

اسمع صوت اجراس بعيد يئن كما كان يفعل يوم جئت . صوت المؤذن أبحّ ... لماذا كل هذه الأحزان ، هذا الحداد المرّ ؟ الجنازة واحدة .

لماذا يؤمّ الحشد كله المقبرة : القاتل والقتيل ، المشيّعون والمؤذن والأجراس والشوارع والساحات والجوامع والكنائس ... لماذا كل هذا الموت ؟

في سالف العصور كانت توقد النار للفنان كي يكمل مجده فيمتطي صهوتها ، يحترق كي تعبّ عيناه من السماء ... آنئذ فقط كان يدرك أعماق الزرقة كلها ... لحظته الحقيقية الوحيدة . هل لي أن أطلب اليك أيها القاضي شرف هذه الطقوس كي يكون رحيلي مجدياً ؟ (١)

---

(١) وجدت كثيراً من العناء في قراءة دفاع صديقي الياس . بدأ الخط واضحاً جميلا وأخذ يغمض ويتوتر واختلطت أواخر كثير من الكلمات بأوائلها واختلف حجمها فكان بعضها صغيراً وبعض كبيراً وغدت في النهاية رموزا لا حيلة لي في حلها. وما زالت لدي صفحتان لم أستطع قراءتهما . والذي علمته فيما بعد أن المحكمة لم تقرأ دفاعه فقد أخرج من الزنزانة قبل أن يتمه ولا يعلم أحد إلا القضاة إلى أين ذهب .

نحن الكتاب ذاكرة التاريخ ، نظل نرقب هذا العالم نحصي صيرورته وما تزخر به من فرح ومأساة . تحفر أحزان البشر ومسرّاتهم نمط تفكيرنا وتلون رؤانا . تحيك خيوط شخصيتنا حتى نغدو بعض هذا العالم المدرك .

نحن كاللوحة التي تسجل خفقان القلب . تضطرب أساريرنا وتصفو تبعاً لما يختلج في الكون من عواطف . يتناسب وضوح الخط مع حساسيتنا ، إذا اغمض أو امحى فقدت تلك العواطف وجودها الانساني وزال مبرر وجودنا نحن .

حلمنا أن نلمّ بالعالم جميعاً . سعادتنا أن يتّسع مدى رؤيتنا رغم ما في ذلك من مخاطر . يؤرّقنا إدراكنا الماضي وحدسنا بالمستقبل . تظل نفوسنا مشرعة تستقبل ما يلمّ بأعماق العالم من تيارات وتطور . نصمت طويلا كي نتكلم كثيراً . أمانتنا لأنفسنا تقاس بعمق الصمت وما يتجلى عنه من أفكار . حبانا الصمت والتأمل بالقدرة على أن نكون – وحدنا – معبرين بصدق وعمق عما يختلج في الكون من أفكار وأحداث .

نحن وحدنا القادرون على تجاوز السطح إلى العمق فنستشف ما يكمن وراء حجب الصورة من معنى . نظلّ نشاهد التطور الحي وننظر بسخر لا يخلو من التعالي إلى ما يجري حولنا من مظاهر . نقفز وراء الحروب والثورات ورجال السياسة لنرى مكنونات لاشعور الكون . إن ما يراه الآخرون ما هو غير تعبير شعوري سطحي عما يجري في العمق . وما الأحداث والرجال غير دمى تتحرك بلا وعي ، حباها القدر بغرور الدمية التي تعتقد أنها تحرك أصابع الحاوي حسب مشيئتها ، فتنزلق بها القدم وتخطىء بتأدية دورها على قدر غرورها .

موهبتنا هذه هي مصدر قلقنا وعذابنا . نحمل منذ ما نوجد على الأرض أزمتنا كخطيئة مميتة أبدية . عصياننا أننا مشدودون بطبيعة الموهبة إلى الرفض والتبشير بنبوءات لا حيلة لنا بتفاؤلها أو تشاؤمها . فهي صدى تجاوبنا مع المرحلة التاريخية واكتناه اسرارها. ننقل إلى البشر بكل غباء إحساساتنا ونجدنا – شئنا أم أبينا — في مكان التحدي بكل ما فيه من أمل ويأس ، فلا نحظى إلا بالاضطهاد لأن السلطة تخال أنها أبدية ، فترى في نبوءاتنا بشيراً بزوالها فترهبنا وتقاومنا كما يقاوم الشيخ نداء الموت .

لقد عذّب المفكرون في القرون الوسطى فأهينوا وأحرقوا . كان احتمال النار عليهم أسهل من احتمال الحاح الكلمة وقلق الصمت . وانتصرت في داخلهم حاجة التفكير على غريزة حب البقاء واختاروا ان يكونوا رسلا للذين أحرقوهم على أن يلوّثوا قدسية الفكر ببغاء القطيع .

لقد تجاوز ايمانهم بأفكارهم كل نوازع الحياة العادية لأن المفكر – على اختلاف العصور – يجب أن يكون عابداً حقيقياً يحب أفكاره حتى الموت .

جابه المفكرون الظلم عبر عصور التخلف وقاوموه حتى املوا بتضحياتهم احترام الفكر وجعلوا من رسالتهم قدساً لا يدنسه إلا طاغية أو متخلف ، والتخلف أولى صفات الطغيان .

لقد حققت حضارة القرن العشرين تقدماً كبيراً فما عاد يحرق المفكرون ، بل ما عادوا يضطهدون في كثير من الأمم التي تجهد في ان تكون على مستوى هذه الحضارة . ولكن القرون الوسطى ما انتهت بعد في كثير من الأصقاع . والتقدم والتخلف لا يتعلقان بالزمن . فقط وإنما بالزمن والمكان . بل أذهب إلى أن الزمن بات عاملا سلبياً في عصر النسبية ، تزداد الشقة فيه متسارعة مع الزمن بين التخلف والتقدم حتى ليستحيل على الإشعاع الحضاري أن يعم الأرض.

في القرن التاسع عشر كان الأوربي والمتخلف يركبان عربة

تجرها الخيل. ثم اخترع الأول سيارة سرعتها عدة كيلومترات في الساعة، فنظر اليها الآخر يستغرب كيف تسير عربة بلا خيل.

أخذ الشرقي آنئذ يصارع الأمية وما زال. وقد أحرز تقدماً في هذا المضمار. فقد كانت معركته تلك الحلبة التي يلحق بها بركب الحضارة.

تسارع التقدم في الغرب والشرق الأول يستمر في تطوره الذي بلغت سرعته عدة كيلومترات، وهذا يبدأ بسرعة الماشي الكسول على قدميه. وأخذت الشقة تزداد متناسبة في التسارع حتى ركب الغربي صهوة الأجواء إلى القمر منتصراً على جاذبية الأرض بينما نحاول في الشرق أن ندرك الف باء التكنيك. فازدادت نسبة تخلفنا ازدياداً مربعاً مع الزمن وبات تقدمنا تأخراً.

لبسنا مثل الأوربي وأكلنا مثله ونقلنا أفكاره وتصنعنا الايمان بها، فبالغنا كأنها نبعت منا فتعصبنا لها تعصباً ضيقاً أعمى حتى غدت طوطماً لا يجوز المساس به. أخذناها مسلمات وأغلقنا الأبواب في وجه النقد الذي يريد أن يدرك هويتنا من خلال الآخرين فخنقنا قدرتنا على التطور والتحضر وأجبر الفكر على الهجرة واختيار أوطان أخرى كي يجد نفسه.

قرأت تقريراً قدمه عالم إيرانيّ لليونسكو والأمم المتحدة يتّهم فيه الدول الكبرى باستنزاف الكفاءات العلمية من البلدان المتخلفة. يقارن بين المساعدات التقنية التي تقدمها تلك الدول وما تحتفظ به من أبناء المتخلفين عندها، فيصل إلى نتيجة أن الأمم المتخلفة هي التي تساعد المتقدمة. ولو تعمقنا بهذه المشكلة لوجدنا الأمر مختلفاً جداً. إن العلماء الذين تجتذبهم الحضارة ينفصلون نوعياً وعضوياً عن بلدانهم. فقد باتوا جزءاً من تلك، تخلقوا بأخلاقها وأصبحوا بعضاً منها. ومن عاد منهم إلى وطنه التهمه فراغ التخلف.

تحاول الدول النامية جادة في ترغيب العلماء فتغدق عليهم وتحيطهم بالعناية غير انها لا تستطيع أن تقدم لهم مجالهم الحيوي:

الجوّ العلمي الذي يجعل حياتهم مثمرة . والعالم كالبذرة ، لا تنبت إلا في أرض خصبة : نوع التربة والرطوبة والجو هي التي تمنحها الحياة . إن وجود المخبر تحت تصرف العالم غير كاف لتفتّحه فلا بد من أن يكون المجتمع متحضراً . إنه جزء من الحضارة يعيش من نسغها ويضمر بعيداً عنها .

نحن نعيش في عصر لا ينتظرنا أبداً . يحث الخطا في سبيل غاية وحيدة هي التقدم . تنقلب فيه المفاهيم بالقدر الذي تزداد فيه الاكتشافات حتى لقد باتت المعطيات الأساسية الأولية التي نعيش عليها خطأ . لقد قفز العلم قفزات كبيرة جعلت المسلمات نفسها سخفاً . إن الأكل لم يعد مشكلة كما كان في الماضي. فقد استطاع العلم ان يركب الغذاء من البترول . ولولا أن تكاليفه غالية لاصبح شعبياً. ومن يدري، فقد تضطره حرب ممكنة أو ضائقة غذائية أن يحسّن الانتاج فيصبح بعدئذ التفكير بالغذاء ثانوياً . بات النظر إلى الأرض والتملك مختلفاً . فرقعة الأرض التي كانت ضرورية لإعالة اسرة اصبحت تكفي أسراً . وقد يمسي الاصلاح الزراعي خلال سنوات هو في توسيع الملكية من أجل إنتاج أفضل . قد يصل العلم إلى أن يدير مهندس المعمل من حمامه بالتلفزيون ، فهل يعمل العامل عندها ست ساعات ؟ ما مصير العمال آنئذ ؟ بل ما مصير الثورات ؟ لا بد من نظريات اشتراكية جديدة تنسجم مع العلم . ولا بد للثورات من أن تكون على مقياس التطور فتتخذ قيماً ومثلا جديدة ، أو غدت ثورات مانشيتات الصحف .

هذا التقدم يوازيه في البلدان المتخلفة محاولات صادقة أحياناً ، يائسة أحياناً ، طائشة أخرى ، لتنظيم المجتمع وحفزه في الطريق الحضارية . وأقلقها النمو البطيء فشاءت أن تدفع العجلة . وظنت أن السلطة هي التي تمكنها من القيام بدورها التاريخي فتشبثت بها ودافعت عنها ونسيت منطلقها الأول ونياتها الحسنة حتى غدت السلطة غايتها لا وسيلتها .

إن الرأسمال الجديد الذي سيتحكم بالبشر هو العلم ، كما أن السلطة هي الرأسمال الذي يتحكم في البلدان المتخلفة .

إن الرأسمال والملكية يفقدان في العالم . المتقدم شيئاً فشيئاً من قيمتهما ، بينما تسقط كل الحواجز أمام العلم وستغدو قوانين العلم في المستقبل قوانين للمجتمع هدفها الأول التقدم . إن سنة يقضيها انسان في السجن تصبح عقوبة لا يطيقها إلا مجتمع جاهل ما دام نفس الانسان يستطيع في دقائق أن يقطع مسافة تقدر بآلاف السنين . لقد باتت حياة الانسان أطول وأجمل وأقدس . إن قتل سنة من حياته بات جريمة كبرى ، فهو قادر على أن يعطي في هذه الفترة ما كان مستحيلا على إنسان القرون الوسطى في سنين كثيرة .

أما في البلدان المتخلفة ، فالسلطة تحول شيئاً فشيئاً إلى قواعد وقوانين لا قيمة لأي وجود غير وجودها . كلما تقوقعت على نفسها ازدادت غربتها وتعقدت وسائلها وشريعتها . صاحبها يتمتع بنفس متع الرأسمالي والاقطاعي . ذلك كان يجعل من القوانين وسيلة للاستعباد وزيادة ملكيته ، وهذا يجوّز القوانين ليثبت مركزه . فحلّ المتسلط محل ذاك حتى بأدق التفاصيل .

وبالقدر الذي يتسارع التقدم يتسارع التسلط .

هل حكم علينا إذن بالتأخر المستمر ؟ قد أجيب بلا ، مجنّباً نفسي تهمة التشاؤم. فقد بات من شروط الكتابة أن نتفاءل. والحق أني لست متفائلا ولا متشائماً . أزمتي انني أحدّق بالمشكلة دون وجل، ولا يسعني إلا أن أقول دون تردد: ليس في واقعنا ما ينبئ بالخروج من الدوّامة .

كانت المقدّمات حتى الآن مثبطة للامل . وقد حاول جيلنا أن يصنع شيئاً. وصدق النية في ذلك . غير انه لم يكن غير حلقة من حلقات التطور التي استطاعت أن تسير بالعجلة قليلا إلى أمام. غير أن القياس مع التقدم الحضاري لم يكن لصالح هذا الجيل . فالمرحلة قاسية تغمر النيات الطيبة وعلى هذا ارتد إلى قطيع التخلف مدحوراً

مذموماً لعب التفاؤل البسيط في فشله دوراً كبيراً . كان عليه أن يربي جيلا آخر متحضراً ، في معزل عن كل ميل للسلطة .

لقد نسي أن الحضارة لا تصنع كما أنها لا تقبل الاستسلام والانتظار الخامل، فلا بد من إعداد بذورها. ولكن ذلك يتطلب رؤية حازمة للواقع مهما كانت متشائمة .

الحضارة تطوّر طويل. ومن ظنّ أنه يقفز أمام تيارها عاد الى الوراء . إن التنوّع والعمق أساسيان أكثر من السرعة . إنّ من يقسر النمو يجهضه ،فلا بدّ من أن يكون طبيعياً. إن الشعور بالوصاية هو شعور بالذنب،يخون التطور عندما يحاول توجيهه لأنه لا يستمر الا في جوّ كامل من الحرية .

إن الصراعات في البلدان المتخلفة على اختلاف اشكالها لا تعدو كونها صراعاً على السلطة، لا خلق فيها ولا ابداع لأن مرحلة التخلّف لا يتجلّى عنها مواهب كبيرة،وانما مواهب دعيّة تتطاول على الحضارة فتظن أنها على مقياسها فتظهر أفكار هي كاريكاتور لتلك : الاشتراكية في البلدان المتخلفة هي كاريكاتور الماركسية والاقتصاد الحر كاريكاتور ذاك . الثورات كاريكاتور الثورتين الروسية والصينية . ولا أدل على ذلك من الإصلاح الزراعي فيها. فقد فهم على أنه تفتيت للملكية وانتزاعها من الملاكين مع انه إصلاح للأرض والانسان ، تحسين التربة والنوع الانساني بتربيته تربية جدية وإفساح الفرصة للامتزاج بين عناصر الأمة والتصاق الانسان بالارض التصاقاً عضوياً . أما التأميم فلم يكن غير وسيلة لدخول قوافل القرويين العاطلين عن العمل إلى المعمل واكتفائهم براتب ضئيل مضمون، فناء هذا بمن فيه وتدنى الانتاج إلى نسبة فريدة في العالم .

لم يستوعب جيلنا الأفكار الجديدة فأعطاها فجة جاهزة إلى جيل آخر اتخذ منها دليلا للعمل دون أن يهضمها فزدنا في التخلف الذي سحقنا.ولذلك كنا مسؤولين.ولا بد لنا من أن نبدأ من جديد،

بعد خبرة طويلة ، السبيل التي خنّاها فتنكرت لنا .

ان العودة شاقة عسيرة لا يحتمل وعثاءها إلا النادرون لأنها مليئة بالمظالم. والاضطهاد ضروري لتعميق المفاهيم . لقد مكننا من أن نرى بوضوح . فقد انضجنا . لقد انهار كثيرون . كنا جماعات فصرنا أفراداً. وقد لا يستطيع الفرد أن يتحمل أثقال المرحلة، ولكن العزلة تمكنه من أن يرى جيداً .

إن الاحساس بعدم الجدوى يدفع الانسان كي يكون مجدياً . ففي أعماقه تفاؤل لا ييأس . يغلفه الظلام ويشتد فلا يقنط من النور . ينتظر الشمس رغم ايمانه بأن حياته أقصر من الموعد الذي ضربه مع الفجر ،وفي هذا بؤسه وسعادته. بؤسه ان آلامه لا تحمل له ثمراً، وسعادته أنه عاد إلى نفسه وصدق معها فخلف وراءه السطح وبات معبّراً حقيقياً عن المرحلة تعمق نظرته بمقدار ما يتحمل من مسؤولية وشقاء . ولا بد له حتّى يكتمل تعبيره من أن يلتصق بالمرحلة التصاقاً كاملا مدركاً . إن الخوف أمامها والتردّد عن حمل مسؤوليتها دليل على عدم الاصالة .

إن الكاتب،على خلاف العالم،مرهون فنه بمجتمعه إذا انفصل عنه فقد مصدر تجربته ووحيه . إنه المرآة التي يرى فيها المجتمع نفسه، ماضيه ومستقبله. وما ذنب المرآة إذا لم تجيء الصورة مطابقة لرغبة الناظر ؟ قد تكون المرآة التي تشوه الحقائق التي تنعكس على صفحتها مقبولة من الآخرين لكنها غير أمينة . وصدق الكاتب على قدر عمقه . إن إحساسه بآلام مجتمعه لا يدع له مجال الزلفى والتسكع على أبواب السلطة ، لأن الحاح الرؤى أقوى من أي إغراء آخر .

تلك كانت الأفكار التي راودتني، وسجّاني يقودني إلى الزنزانة . كان الطريق جلجلة طويلة ، فارغاً باهتاً غبياً لا يتجاوز غباوة غير أحزانه . سجن لا معنى له ، لا مبرر ولا هدف إلا أن المعذبين جمعوا وأجهل لم ، فكنت بينهم .

دخلت وجلست على المرتبة الحجرية وفكرت طويلا بالحياة والموت . كان كل ما حولي يدعو للانتحار . نما في أعماقي إحساس عارم بأن الحياة وهم وبأني قد أجد العزاء فيما بعد الحياة، وتبدّى لي هذا البعد عامراً بكل ما افتقدته وحننت اليه . حتى عيني مادونا الزرقاوين كانتا تنظران على الضفة الأخرى. وراجعني وجدي القديم إلى أن أغمس روحي في عناق أبدي لا تطاله يد سجّان .

ورأيت شفرة حلاقة تركها سلفي تدعوني دعوة عجيبة . ووضعتها على يدي فوق الشريان . ولكم تبدت لي الحياة رغم العذاب والسجون جميلة ! ثم ولا أدري كيف نبتت في ذهني فجأة فكرة تقول ان كتابة كتاب هي أفضل انتحار . أيكون هو البُعْدُ الذي يجد فيه الفنان نفسه ؟

ولكني لست كاتباً . وماذا يستطيع المرء أن يكتب في زنزانة والاشياء غائمة في عقله والعالم ذكرى . يتصور ما رآه البارحة فيجده مغلفاً بالضباب كشيء اسطوري . تمتزج الحقيقة بالخيال فتأخذ الوقائع شكلا خرافياً ، ترتجف الأفكار وتتقطع الجمل وتمتنع على المرء القدرة على التركيز . وهناك الزمن الذي يجب أن نسرقه كي نكتب .

أردت أن اسمي ما كتبت قصة ، ولكن شرط القصة أن تتسق فيها الأحداث وأن تكون لها عقدة وبداية ونهاية . وفي الزنزانة تحلّ العقد ويغدو العالم متموّجاً لا صلة منطيقية فيه . تقترب البداية من النهاية حتى تصبحا شيئاً واحداً متداخلا بعضه ببعض . الاشخاص الذين تنتقيهم ابطالا لها يكتنفهم الغموض، يقلعون عن أن يكونوا حقيقيين مع أنها اكثر حقيقة من جدران السجن وبقه . الكلمات ترتدي غير معانيها ، فلكل منها معنيان بل معان مختلفة .

أردت أن أسمي هذا العمل كتاباً ولكنه ليس من الكتاب في شيء ، لأنه حكاية . قصة إنسان لاحقه السجن حتى في أقصى

سعادته ، ذنبه انه قدّس الانسان . ولكن الكتاب فكرة . وقد
وقد أردته أن يوضح حقيقة واحدة. وهي أن الهدف والأمل ،
البداية والنهاية ، هي الإنسان .

لا يعلم متى ولد . لا يدرك من صور طفولته غير ذكريات قليلة غامضة : قضبان حديدية غليظة يقف أمامها أحياناً شرطي أشهب الشارب يفتله ويناوله قطعة سكر ثم ينظر إلى أمه لامع العين شبقها، ثم يصيح وقد وضع يديه على نطاقة : سكوت ! ... يكفي ! ... لا ضوء هذه الليلة .

الثمن : ليرة لبنانية او ما يعادلها